باب
فى المنادمة

مراتب الندماء واحتياج الملوك لجميع الطبقات

ومن أخلاق الملك أن يجعل نُدماءه طبقاتٍ ومراتبَ، وأن يخُصَّ ويعُمَّ، ويقرِّب ويباعد، ويرفع ويضع، إذ كانوا على أقسام وأدوات[1].

فإنّا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع لِلَهْوِه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه، ويحتاج إلى المُضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لِعظته، ويحتاج إلى أهل الهزل، كما يحتاج إلى اهل الجِدّ والعقل[2]؛ ويحتاج إلى الزامر المُطرِب، كما يحتاج إلى العالِم المُتقن[3].

وهذه أخلاق الملوك أن يحضرهم كُلّ طبقة، إذ كانوا يتصرَّفون من حالِ جِدّ إلى حالِ هزل، ومن ضَحِكٍ إلى تذكير، ومن لَهْوٍ إلى عظَة.

فكلُّ طبقة من هذه الطبقات تُرفع مرَّةً وتُحَطُّ أُخرى، وتُعطى مَرَّةً وتُحرم أخرى، خلا الأشرافَ والعلماءَ. فإنّ الذى يجب لهم رفعةُ المرتبة وإعطاءُ القِسط من الميزة[4] والنَّصَفَةُ عند المعاشرة، ما لزموا الطاعة ورَعَوْا حقَّها.

---

(١) كذا فى صـ، سـ. [والسياق يقتضى معنى المراتب.]

(٢) صـ: والنبل.

(٣) صـ: المفتى. قال فى "محاسن الملوك" (ص ٤٣): "ولما كان الملك محتاجا إلى اصطناع الرجال لحاجته إلى اصطفاء الأموال، وجب أن يتخيّر لمسامرته من يكون طيِّب الأعراق، باعثا على مكارم الأخلاق؛ ولكنه قد يحتاج إلى المطرب المُلْهى كما يحتاج إلى العالم المفتى. لأنه يحتاج إلى أن يتصرّف بين الهزل والجِدّ لما هو بصدده من التعب فى النظر فى أمر الجمهور".

(٤) صـ: المرتبة.

آداب الخروج من حضرة الملك والرجوع اليها

وليس من حقّ الملك أن يَبْرَحَ أحدٌ من مجلسه[1] إلّا لقضاء حاجة. فإذا أراد ذلك، فمن الواجب أن يلاحظه. فإنْ سكت الملكُ، قام بين يديْه ثم لاحظه. فإنْ نظر إليه، مضى لحاجته. فإذا رجع، قام ماثلاً بين يديه أبدًا، وإن طال ذلك، حتّى يُومِئَ إليه بالقعود. فإذا قعد، فمقعيا[2] أو جاثيا. فإنْ نظر إليه بعد قعوده، فهو إذنه له بالتمكّن في قعوده.

كمية الشرب وكيفيته موكولتان للملك، وعليه العدل

وليس له أن يختار كميّة مايشرب ولا كيفيّتها، إنما هذا إلى الملك. إلا أنّ من حقّه على الملك أن يأمر بالعدل عليه والنَّصَفَة له، ولا يجاوز به حدّ طاقته ولا وُسْعَ استطاعته، فيخرج به من ميزان القسط وحدّ القصد: لأنّه لا يأمن أنْ يُتلف نفسا، وهو يجد إلى إحيائها سبيلا.

ومن أخلاق الملك السعيد أن يحرص على إحياء بِطانته، حِرْصَه على إحياء نفسه، إذ كان بهم نظامه.

(١٦)

طبقات الندماء والمغنين عند الفرس وفي الإسلام

وإذ قد انتهينا إلى هذا القانون من القول، فبنا حاجة إلى الإخبار عن مراتب الطبقات الثلاث من النُّدماء والمغنّين[3]، وإن كانت مراتبهم في كتاب الأغاني محصورةً، فقد يجب ذكرها في هذا الموضع أيضا، لأنها داخلة في أخلاق الملوك.

---

(١) كذا في سـ، صـ "يبرح أحد من مجلسه" بتعدية يبرح بمن. والذي في كتب اللغة تعديته بنفسه. على أن بعض أكابر أهل الأدب قد يُعَدُّون هذا الفعل بحرف "من" كما فعل الجاحظ هنا. فقد ورد في التبريزي "لم يبرح من مكانه" و"ما برحت من مكان كذا" (شرح الحماسة للخطيب التبريزي طبع أوربة ص ١٦٤ و ٢٥٠) وفي الأغاني "ما أنا بارح من بابها" (ج ٢ ص ١٣٧). وفي "المحاسن والمساوئ" قوله: لا أبرح من بغداد (ص ١٩٣). [وانظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب].

(٢) سـ: قعد مقنعا. [وانظر الحاشية ١ ص ٨ من هذا الكتاب].

(٣) ليست الإشارة هنا إلى كتاب الأغاني المشهور الذي لابي الفرج الأصفهاني. فقد تُوُفِّي الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ، وكانت وفاة أبي الفرج في سنة ٣٥٦. ولا بُدّ أن الجاحظ يعني كتابا للفرس أو سفرا آخر =

ولنبدأ بملوك الأعاجم، إذ كانوا هم الأوّل فى ذلك، وعنهم أخذنا قوانين المُلك والمملكة[1] وترتيبَ الخاصّة والعامّة، وسياسةَ الرعيّة، وإلزامَ كلّ طبقة حظَّها والاقتصار على جديلتها[2].

كان[3] أردشيرُ بن بابَكَ أوّلَ من رتّب الدِّماءَ وأخذ بزمام سياستهم، فجعلهم ثلاث طبقات:

= من أسفار الاغانى التى كانت متداولة فى صدر الدولة العباسية كما تدل عليه عبارة الاصفهانى فى مقدمته. هذا وقد أشار المسعودى (مروج الذهب ج ٦ ص ١٠) إلى كتاب الأغانى ولم يقيده بشىء آخر من حيث ذكر المؤلف أو غيره. فلعله هو نفس الكتاب الذى يشير إليه الجاحظ. لان المسعودى فرغ من مروج الذهب فى سنة ٣٣٦ أى قبل وفاة أبى الفرج الأصفهانى بعشرين سنة. وهو لم يعرفه المسعودى ولم يشر إليه ولا إلى مؤلفاته مطلقا فى كتبه التى بلغتنا.

ويتلخص مما ذكره المسعودى وأبو الفرج الاصفهانى فى هذا الموضوع: أوّلا — أن إبراهيم بن المهدى المعروف بابن شكلة (وهى جارية فارسية اسمها الخليفة المهدى) صنّف كتابا فى الأغانى. وهو أوّل كتاب فى هذا المعنى وصلنا خبره، غير الذى يشير إليه الجاحظ والمسعودى؛ ثانيا — أن ابن إبراهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ألفوا له كتابا فى الأغانى وضمنوه المائة الصوت المختارة؛ ثالثا — أن كتاب هؤلاء الثلاثة وقع إلى الواثق، فأمر إسحاق بن إبراهيم الموصلى بتهذيبه وتوسيعه. وقد روى صاحب الأغانى (أعنى أبا الفرج) أن هذا الكتاب ليس من تأليف إسحاق بل هو مصطنع عليه ومنسوب إليه. وأورد حججا تؤيد ذلك فى مقدمة كتابه. ولكن المسعودى ذكره باعتبار أنه من تأليفه.

(١) "صـ: وعنهم أخذنا آيين المملكة" [وانظر الحاشية ٢ ص ١٩ وص ٣٠ و٧٧ من هذا الكتاب.]

(٢) هذه الكلمة وردت فى صـ مهملة من النقط هكذا: "حد طها". وقوفها كلمة "كذا". وقد اعتمدنا رواية صـ. وفيه تفسيرها بقوله: "شاكلتها". وهذا التفسير منقول عن القاموس.

(٣) من هنا إلى قوله "أنت يا فلان كذا وكذا" فى ص ٢٩ من هذا الكتاب نقله المسعودى فى "مروج الذهب" بالحرف الواحد تقريبا، ولم يشر إلى أنه نقل هذه البيانات عن التاج للجاحظ. وقد جرى هو وغيره على هذه العادة فى كثير من العبارات، كما سترى فيما يرد عليك من الحواشى. وقد زاد فى هذه العبارة التى نحن بصددها ألفاظا تزيد المعنى وضوحا، وضم إليها معلومات أخرى. (انظر مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٩، وطبع بولاق سنة ١٢٨٣ ج ١ ص ١١٧ — ١١٨)

فكانت الأساورة[1] وأبناء الملوك فى الطبقة الأُولىٰ. وكان مجلس هذه الطبقة من الملك علىٰ عشرة أذرع من الستارة.

ثم الطبقة الثانية، كان مجلسها من هذه الطبقة علىٰ عشرة أذرع (وهم بِطانة الملك وندماؤه ومحدِّثوه من أهل الشرف والعلم)؛

ثم الطبقة الثالثة، كان مجلسهم علىٰ عشرة أذرع من الثانية، وهم المُضحِكون وأهل الهزْل والبطالة. غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيسُ الأصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقِصَر ولا مَؤُوفٌ[2] ولا مرمىٌّ بأُبْنَة[3] ولا مجهولُ الأبَوَيْن ولا آبن صناعة دنيئة، كآبن حائك أو حجّام، ولو كان يعلم الغيب مثلا. (١٧)

وكان أردشير يقول: "ماشئٌ أضرَّ علىٰ نفسِ ملكٍ من معاشرةِ سخيفٍ أو مخاطبةِ وضيع. لأنه كما أنّ النفس تصلُح علىٰ مخاطبة الشريف الأديب الحسيب، كذلك تفسُد بمعاشرة الدنىء الخسيس، حتى يَقدَح ذلك فيها ويُزيلَها عن فضيلتها. وكما أن الريح، إذا مرّت بِطيبٍ، حملت طِيبًا تحيا به النفس وتقوىٰ به جوارحها، كذلك إذا مَرَّتْ بالنَّتْن فحملته أَلِمَتْ له النفس وأضرَّ بأعلاقها إضرارًا تامًّا[4]."

---

(١) الأسوار: الواحد من أساورة الفرس. قال أبو عُبيد: هم الفرسان، والأساورة أيضا قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة (الصحاح) [حاشية عن صـ]. قال الخوارزمىّ فى "مفاتيح العلوم" إن العجم لا تضع آسم أسوار إلّا على الرجل الشجاع البطل المشهور. وعلى ذلك يكون مقابله فى اللغة الفرنسية: Chevalier.

(٢) هذه الكلمة وردت فى صـ فقط. [ومعناها مصاب بآفة].

(٣) الأُبنة: العيب. (قاموس)

(٤) هذه العبارة منقولة عن آبن المقفع فى "الادب الصغير" وفى "كليلة ودمنه".

أقسام الناس عند الفُرس أربعة

وكذلك جعل الناس على أقسام أربعة، وحصر[1] كل طبقة على قسمتها[2]:

فالأول الأساورة من أبناء الملوك؛

والقسم الثانى النُّسَّاك وسَدَنَةُ[3] بيوت النِّيران؛

والقسم الثالث الأطبَّاء والكُتَّاب والمنجِّمون؛

والقسم الرابع الزُّرَّاع والمِهَان[4] وأضرابهم.

وكان أردشير يقول: "ما شئٌ أسرعَ فى انتقال الدُّول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتّى يُرفَعَ الوضيع إلى مرتبة الشريف، ويُحَطَّ الشريف إلى مرتبة الوضيع."

(١٨) مقابلة كل طبقة من الندماء بمثلها

وكان الذى يقابل الطبقة الأُولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلَ الحذاقة بالموسيقيات والأغانى. فكانوا بإزاء هؤلاء نُصِبَ خطّ الاستواء.

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبِطانته الطبقةَ الثانية من أصحاب الموسيقيات.

---

(١) فى سـ، صـ: خصَّ.

(٢) أردشير بن بابك هو أوّل من رتب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب فى الآداب الملوكية من أحوال الدين والدنيا، وعلَّم مراتب الخلق فى الديوان والدول، ونصب الموبذان موبذ يعنى كبير القضاة الشهير اليوم بقاضى العسكر. (عن محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر)

(٣) أى خَدَمَة.

(٤) ضبطها فى سـ بكسر الميم وفتح الهاء بغير تشديد. [وقد تكون هذه الكلمة جمع ماهن أى صاحب المهنة. وهو أيضا الخادم والعبد. وجمعه يكون حينئذ "مُهَّان" مثل كاهن وكُهَّان وصانع وصُنَّاع]. وعلى هذا الوجه الثانى ضبطها فى صـ.

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحاب[1] الوَنَج[2] والمعازف والطنابير[3]. وكان لا يَزْمُرُ الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المُغنِّين. وإنْ أمره الملك بذلك، راجعه وٱحتجَّ عليه.

إحتفاظ الفُرس بهذا الترتيب

وقلَّما كانت ملوك الأعاجم خاصةً تأمر أن يَزْمُرَ على المُغنِّى إلّا من كان معه فى أُسلوب واحد، إذ لم يكن من شأنهم أن ينقلوا أحدا من طبقة وضيعة إلى طبقة

(١) فى سـ، صـ: وأصحاب.

(٢) كلمة فارسية معرّبة. والعرب تقول الونّ بتشديد النون. وهى الصنج، آلة من آلات الطرب. وقيل إنه الصنج ذو الأوتار (أُنظر تاج العروس، ومفاتيح العلوم للخوارزمى). وروى فى كتاب الملاهى بيتاً للأعشى، وهو:

وَمُسْتَقٍّ صينى وَوَنٍّ وبَرْبَطٌ * يجاوبه صَنْجٌ إذا ما ترنَّما

وقال صاحب شفاء الغليل: "إن الونج هو عود الطيب، معرب". فٱنظر من أين أتى بالطيب هنا. ولعله أراد عود الطرب. فصحفها الناسخ وفاتت الطابع.

(٣) أُنظر أسماء آلات الموسيقى عند العرب فى الجزء ١٣ من "المخصص" لابن سِيدَه (ص ١١ ــ ١٥)، فتعرف أن الطُّنْبُور والطِّنْبار من الأسماء المعروفة عند العرب [نقلا عن الفُرس]. أما ما زعمه العلامة دوزى من أنهم أخذوا هذا الاسم عن اللغة السلتية Celtique، فهو زعمٌ يقوم الدليل على خلافه:

أولا ــ ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة (المتوفى سنة ١٠١ أو ١١١ للهجرة). قال:

"من الطنابير يَزْهَى صَوْتَه ثَمِلٌ فى لحنه عن لغات العُرْب تعجيمُ."

ومعلومٌ أن العرب ٱبتدؤوا فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ. ولا يكفى سبعُ سنواتٍ أو ثمانٍ لٱنتقال اللفظ من أقصى الغرب إلى بادية العرب وشيوعه فيها حتى رضى ذو الرُّمة بٱستعماله وٱرتضاه الناس منه.

ثانيا ــ إن الاسبانيين يقولون إلى الآن Atambor، وهو لفظ مأخوذ عن الاسم العربىّ بأداة التعريف العربية. فلو كان اسم هذه الآلة شائعا عندهم قبل دخول العرب بلادهم لما بقى فى لغتهم بهذه الصورة العربية. وهذا رأى الأستاذ لناردى الطليانى فى معجمه المسمّى Le parole italiane derivate dall'arabo وهو رأىٌ رجيح، أيدناه بشعر صحيح، لبدوىّ فصيح، نبت فى المهامِه الفِيح، ومات بين القيصوم والشيح. (أُنظر ترجمته فى الأغانى ج ١٦ ص ١١٠ وما يليها)

رفيعة. إلّا أن الملك كان ربما غلب عليه السُّكر حتّى يؤثّر فيه، فيأمر الزامر من الطبقة الثانية أو الثالثة أن يزمُر على المغنى من الطبقة الأُولى، فيأبى ذلك. حتّى إنه ربما ضربه الخدم بالمراوح والمذَبّ[1] فيكون من اعتذاره أن يقول: إن كان ضربى بأمر الملك وعن رأيه، فإنه سيرضى عنى إذا صحا، بلزومى مرتبتى.

(١٩)

معاقبة أردشير لنفسه لمخالفته هذا القانون

وكان أردشير قد وكّل غلامين ذكيين ـ لا يفارقان مجلسه ـ بحفظ ألفاظه عند الشرب والمنادمة. فأحدهما يُمِلّ[2] والآخر يكتب حرفًا حرفًا. وهذا إنما يفعلانه إذا غلب عليه السكر. فإذا أصبَحَ ورَفَعَ عن وجهه الحجابَ، قرأ عليه الكاتبُ كلَّ ما لَفَظَ به فى مجلسه إلى أن نام. فإذا قرأ عليه ما أمر به الزامرَ ومخالفةَ الزامر أمْرَه، دعا بالزامر فخلع عليه وجزاه الخير، وقال: "أصبتَ فيما فعلتَ وأخطأ الملكُ فيما أمرك به. فهذا ثوابُ صوابك[3]. وكذلك العقوبة لمن أخطأ. وعقوبتى أنْ لا تزمزم اليوم إلا على خبز الشعير والجُبْن." فلم يَطْعَم فى يومه ذلك غيرهما.

وما ذاك إلا حثًّا على لزوم سُنَّتهم وحفظ نواميسهم وأخذ العامّة بالسياسة التامّة والأمر اللازم.

---

(١) جمع مِذَبَّة. وهى آلة لطرد الذباب، وهى التى تسميها فى مصر بالمنشة. أما المراوح فمعروفة؛ وانظر تفصيلا شافيا عن أنواعها فى أيام الدولة العباسية وما بعدها فى كتاب "مطالع البدور فى منازل السرور". (ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٦)

(٢) صـ: يُمْلِل.

(٣) صـ: "فهذا صوابٌ هذه ثمرته". وهى روايةٌ صحيحةٌ تشابه التى آخترناها فى المتن عن صـ لأنها مختصرة مفيدة.

اختلال هذا النظام أيام بهرام جور واعادة أنوشروان له

فلم يزل على ذلك ملوك الأعاجم حتّى ملك بَهرام جُور[1] بن يَزْدَجِرْد، فأقر مرتبة الأشراف وأبناء الملوك وسَدَنَة بيوت النِّيران على ما كانت، وسوّى بين الطبقتين من الندماء والمغنّين ورفع مَن أطْرَبَهُ - وإن كان فى أوضع الدرجات - إلى الدرجة الأُولى، وحطّ مَن قصّر عن إرادته إلى الطبقة الثانية. فأفسد سيرة أردشير فى المغنّين وأصحاب الملاهى خاصّةً. فلم يزل الأمر على ذلك حتّى ملك كسرى أنوشِرْوَانَ، فردّ الطبقات إلى مراتبها الأُولى.

احتجاب ملوك الفرس عن الندماء. ومقدار المسافة بين الطبقات

وكانت ملوك الأعاجم كلُّها من لَدُنْ أردشير بن بابك إلى يَزْدَجِرْدَ تحتجب عن الندماء بستارة. فكان يكون بينه وبين أوّل الطبقات عشرون ذراعا. لأن الستارة من الملك على عشرة أذرع، والستارة من الطبقة الأولى على عشرة أذرع.

وكان الموكّل بحفظ الستارة رجُلا من أبناء الأساورة يقال له "خُرَّم باش"[2]. فإذا مات هذا الرجُل وُكِّل بها آخر من أبناء الأساورة وسُمِّىَ بهذا الاسم. فكان "خرم باش"[2] إذا جلس الملك لندمائه وشغله، أمر رجلا أن يرتفع[3] على أعلى مكان فى قرار دار الملك ويُغرِّد[4] بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول: "يالسان! احفظ رأسك[5]، فإنك تجالس فى هذا اليوم ملك الملوك!" ثم ينزل.

---

(١) أُنظر السبب فى إضافة الجور إلى اسمه فى كتاب "غرر أخبار ملوك الفُرْس وسِيَرِهم" للثعالبىّ (صفحة ٥٤٤).

(٢) سـ: "خرمتاش". وصححنا عن صـ وعن المسعودىّ الذى قال: "وتفسير ذلك: كُنْ فَرِحًا."

(٣) فى سـ "يرفع". والتصحيح عن صـ وعن المسعودىّ.

(٤) سـ: "يعرب". والتصحيح عن صـ وعن المسعودىّ.

(٥) صـ: الرأس.

فكان هـذا [فعلَهم] فى كل يوم يجلس فيـه الملك لِلَهْوِه، ولا يجترئُ أحد من خلْق الله أن يدير(١) لسـانه فى فيه بخير ولا غيره، حتّى تُحرَّك الستارة، فَيَطْلُعَ القائمُ عليها (٢١)
فَيُؤْمَرَ(٢) بأمرٍ فينفِّذه، ويقول: إفعل يافلان كذا، وتُغَنِّى أنت يافلان كذا وكذا(٣).

وكان الندماء من العظماء والأشراف وأبناء الملوك وإخوة الملك وعمومته وبنى عمّه وأوضع الطبقات فى مجلس الملك فى نِقابٍ واحد(٤): إطراقا وإخباتا(٥) وسكونَ طائرٍ وقلّة حركةٍ.

فلم يَزَل أمر الملوك من الأعاجم كذلك حتّى ملك الأرْدَوَان(٦) الأحمر، فكان يقول: «مَن كانت له منكم حاجة، فليكتبْها فى رُقعة وليرفعْها قبـل شُغْلى(٧) فأفهَمُ مافيها

(١) صـ: يفيض.

(٢) سـ: تحوّل الستارة فيؤمر.

(٣) انظر حاشية ٣ ص ٢٣ من هذا الكتاب. (وهنا ينتهى ما نقله المسعودىّ عن الجاحظ.)

(٤) قال فى أساس البلاغة: كانا فى نقاب واحد: أى كانا مَثَلَيْن ونظيرَيْن. وفى سـ: فى نصاب واحد.

(٥) أى خشوعا وخضوعا وتواضعا.

(٦) كذا فى سـ، صـ هنا [ثم فى صفحتى ١١٨ و ١٥١ من هذا الكتاب]. والذى يستفاد مما ذكره المسعودىّ فى "مروج الذهب" وفى "التنبيه والإشراف" أن الأردوان هو عَلَمٌ على جماعة من ملوك النَّبَط، وكانوا من ملوك الطوائف بعد الإسكندر. وهؤلاء ليس لهم شأن فيما نحن بسبيله الآن.

ويستفاد منه أيضا أن فارس قام عليها ملكان أحدهما اسمه الأردوان الأكبر والثانى الأصغر. وأن هذا الثانى كان أعظم شأنا وأكبر ملكا. وهو الأردوان بن بهرام بن بلاش آخر ملوك الأشكانية. قتله أردشير بن بابك وقام بأعباء الملك بعـده. يؤيد ذلك ابن الأثير والثعالبىّ. والراجح أن هـذا الأردوان هو المراد هنا وأن كلمة "الأحمر" تحريف من الناسخ للفظة "الأصفر".

(٧) سـ: تنقُـلى.

ويَخرجُ إليه أمرى، وعقلى صحيحٌ وفكرى جامعٌ." فَمَن سأل فى غير هذا الوقت حاجة، ضُرِبتْ عنقه. وهو أوّل مَن فتح هذا. وكان لا يَرُدّ سائلاً، ولا يُعْطِى مبتدئا.

فلم يزل الأمر على ذلك حتّى ملك بَهْرام جُور، فكان يقول للنُدماء: "إذا رأيتمونى قد طَرِبْتُ وخرجتُ من باب الجِدّ إلى باب الهزل، فسلوا حوائجكم." وكان يُوَكِّل بحوائجهم صاحبَ الستارة. فكان إذا سَكِر، مدّ الناس أيديهم برقاعهم، فأخذها صاحب الستارة، فأنفذها إليه. فأخذها بيده وضَمّها عليها، ثم رمى بها من غير أن ينظر فى شىء منها، ويقول: "أنفِذوا كلَّ مافيها." فكان ذلك ربما بلغ فى ليلة واحدة من سؤالٍ فى إقطاع أو قضاءِ دَيْنٍ أو طلب مِنْحةٍ[1] ألفَ ألفٍ أو أكثرَ. إلاّ أنّ ذلك لم يكن تِبَاعا. (٢٢)

وكان إذا رفع أحدهم فى رقعته ما ليس يجوز لمثله ـ وهو خارج من حدّ القصد وأَدْخَلُ[2] فى باب الإفراط ـ لم تُقْضَ له حاجةٌ، وسُمِّىَ جاهلا، ولم تؤخَذ له رُقعةٌ بعدها أبدا.

التسوية بين الطبقات فى أيام يزيد بن عبد الملك

ثم لم يكن ذلك بعدُ فى أخلاق الملوك من الأعاجم والعرب حتّى ملك يزيد بن عبد الملك. فسوّى بين الطبقة العُلْيَا والسُّفلى، وأفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهْوُ، واستخفّ بآيين[3] المملكة، وأذِنَ للنُدماء فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه والردّ عليه.

أوّل خليفة سُئِم فى وجهه هزلا

وهو أوّل من سُئِمَ فى وجهه من الخلفاء على جهة الهزل والسَّخف.

(١) صـ: "منيحة". وهى المنحة أيضا.

(٢) صـ: وداخل.

(٣) سـ: بقوانين. (أُنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ وص ٢٣ وص ٧٧ من هذا الكتاب)

أحوال الأمويين في الشرب واللهو

قلتُ لإسحاق بن إبراهيم[1]: هل كانت الخلفاء من بني أُميَّة تظهر للندماء والمغنين؟

(١) في ص : لأبي اسحاق بن ابراهيم الموصلي . (وأبو، زائدةٌ ولاشك).

لم أترك طريقا من طرق البحث للتعريف بهذا الاسم إلّا سلكتُها . فتقصَّيتُ كلَّ مَن اسمه "إسحاق بن إبراهيم" ممَّن عاصر الجاحظ فلم أستطع أن أحصر مصدر هذا الخبر إلّا في رجلين : أحدهما (وهو الذي يتبادر الذهن إليه) إسحاق بن إبراهيم الموصلي صاحب الصيت البعيد في الغناء والأدب والرواية ؛ والثاني إسحاق بن إبراهيم المُصعبي (حاكم بغداد في أيام المأمون والمعتصم والواثق) وهو من أرباب المكانة العالية في الأدب والرواية ونقد الغناء .

غير أنه ليس من المحتمل أن يكون الراوي هو إسحاق المصعبي ، لأنه من ذوي قرابة طاهر بن الحسين ، قاتل الأمين . وأهل هذا البيت جميعهم نشأوا في بوشنج من خراسان ، ولم يحضروا بغداد إلّا بعد دخول المأمون فيها . يعرف ذلك كل من عانى التاريخ الإسلامي . فكيف يكون إسحاق المصعبي قد شهد مجلس الأمين في دار السلام أو أخذ منه الجوائز والصِّلات؟ (أُنظر ص ٤٣ من هذا الكتاب) .

أما إسحاق الموصلي فما أشبه بأن يكون هو الراوي للخبر، لولا أن عبارة الجاحظ مضطربة مشوّشة بحيث إنها لو بقيت على حالها كما هي واردة في س ، ص (وكما جرت العادة به في الكتابة العربية أي بدون علامات الترقيم) لكان من المتعذر معرفة وجه الصواب أو نسبة الحديث إلى صاحبه . وذلك لأن القصة تضمنت خبرا فيه تحقير لأبيه وتصغير لشأنه (كما تراه في ص ٣٩ و ٤٠) فضلا عن أنها تنتهي بخبر عن إسحاق الموصلي نفسه (في ص ٤٣ و ٤٤) . وهذا الخبر الثاني منقول بصيغة الغائب المحدَّث عنه ، لا كما يتكلم الإنسان عن نفسه . وفيه ما يجدر بمثل الموصلي أنْ يملأ به فمه تشدُّقا وفخرا ويرفع له رأسه تيها وكبرا . كيف لا وفيه أنّ المأمون ضمَّ إسحاق وقبَّله . فكان المعقول والمتحتم أن يقول الراوي مُدلِّلا معجبا : "فضمَّني وقبَّلني" .

على أن الشكَّ في راوي هذا الحديث قديم . يرجع أوّل عهده إلى الطبري المتوفى سنة ٣١٠ . فقد روى إمام المؤرخين واقعة إبراهيم (والد إسحاق الموصلي) مع الهادي (راجع السلسلة ٣ ص ٥٩٥) . والخبر بنصه تقريبا وارد في عبارة الجاحظ (ص ٣٦) . لكن الطبري رواه بصيغة الغائب وصدّره بقوله : "وذُكر عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أو عن غيره" . وكذلك روى صاحب "الأغاني" خبر إبراهيم بن المهدي مع الأمين (الوارد في حديث الجاحظ ص ٤٣) بروايتين مختلفتين جدا ، إحداهما عن إسحاق الموصلي متكلما عن نفسه والثانية عن محمد بن الحارث بن بشخير (راجع الأغاني ج ٩ ص ٧١) . والخبر نفسه وارد أيضا عن إسحاق الموصلي بلهجة المحدّث عن نفسه في "العقد الفريد" لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٢٤٤) وفي "معجم الأدباء" لياقوت (ج ٢ ص ٢٠٦) .

=

قال: «أما مُعاوِيَةُ ومَرْوَانُ وعبد المَلِك والوليد وسليمان وهشام ومَرْوان» «ابن محمد، فكان بينهم و بين الندماء ستارة. وكان لا يظهر أحدٌ من الندماء على ما يفعله» «الخليفة، إذا طرِبَ للمَغْنى وآلتَذَّهُ حتى ينقَلِبَ ويمشى ويحرِّك كتفيه ويرقص» (٢٣) «ويتجرّد حيث لا يراه إلا خواصّ جواريه. إلّا أنّه كان إذا ارتفع من خلف الستارة» «صوتٌ أو نعير طَرَب أو رقصٌ أو حركةٌ بزفير تجاوز المقدار، قال صاحب الستارة:» ٥ «حَسْبُكِ ياجارية! كُفِّى! انتَهِى! أَقْصِرى! يُوهِمُ الندماء أنّ الفاعل لذلك بعض» «الجوارى.»

«فأما الباقون من خلفاء بنى أُمَيَّة فلم يكونوا يتحاشَوْن أن يرقصوا ويتجرّدوا» «ويحضروا عُراة بحضرة الندماء والمغنّين. وعلى ذلك، لم يكن أحدٌ منهم فى مثل حال» «يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المُجُون والرَّفَث بحضرة الندماء والتجرُّد:» ١٠ «ما يُبالِيان ماصنعا.»

= وعندى أنه لا يمكن التوفيق بين جميع هذه الروايات، إلا إذا افترضنا أن هذا الحديث قد رواه الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، ثم حشاه باستطرادات من عنده وروايات أخرى ضمّها إليه مما يَتّسق معه ويناسب المقام أو يرتبط بالموضوع. فكان الجاحظ إذا انتهى من الحشو والاستطراد على ما اعتادته طبيعته وألفتْه نفسه كما هو المعهود فى كلّ كتبه وتصانيفه، عاد إلى الحديث الأصلىّ مستعملا لفظة "قال" تنبيهًا للقارئ ١٥ إلى رجع ما انقطع ووصل ما انفصل واستئنافا لما حدثه به إسحاق بن إبراهيم (الموصلىّ). فحينما كان المقام يدعو الجاحظ للكلام عن نفس إسحاق (صاحب الحديث)، وضع لفظة "ويقال". فيذكر من عنده خبرًا عن نفس إسحاق بصيغة الغائب المحدّث عنه. أما إذا عرض للجاحظ أن يحشر فى تضاعيف الحديث الأصلى شيئا من عنده لأجل زيادة التعريف بأحد الخلفاء أو أحد الأشخاص المذكورين فى الحديث، فكان يستعمل لفظة "وهو" أو "وكان". فإن أتى المؤلف برواية أخرى، عبّر بقوله "وزعم فلان" أو "ولقد حدثنى فلان". ٢٠

فلذلك كله وضعتُ بين شولتين مزدوجتين " " كل سطر من السطور التى ورد فيها كلامٌ دلّنى السياق والبحث والاستقصاء على أنه من حديث إسحاق بن إبراهيم الموصلى للجاحظ. وأغفلتُ من هذه الإشارة كل ما تأكد عندى أنه من حشو الجاحظ واستطراداته، لأنه من ضمن عبارته، والكتاب كله له.

قلتُ : فعمر بن عبد العزيز؟ (عمر بن عبد العزيز)

قال : ”ماطنَّ فى سمعه حرفُ غِناء، منذ أفضتْ الخلافة إليه إلى أن فارق الدنيا.“ ”فأما قبلها ـ وهو أمير المدينة ـ فكان يسمع الغِناء، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل.“ ”وكان ربما صفّق بيديه، وربما تمزغ على فراشه وضرب برجليه وطَرِبَ. فأما أن“ ”يخرج عن مقدار السرور إلى السَّخْف، فلا.“

(٢٤)

قلتُ : فخلفاؤُنا؟[1]

أحوال العباسيين فى الشرب واللهو (السفاح)

قال : ”كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم آحتجب عنهم بعد سنة[2].“ ”أشار بذلك عليه أُسَيْد[3] بن عبد الله [الخُزاعىّ]. وكان يطرَب ويبتهِجُ ويصيح مَن“ ”وراء الستارة: ”أحسنْتَ والله! أعِدْ هذا الصوتَ!“ ”فيُعاد له مراراً. فيقول فى كلها: “ ”أحسنتَ!“ ”وكانت فيه فضيلة لاتجدها فى أحدٍ. كان لا يحضُره نديم ولا مُغنٍّ“ ”ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بِصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ، قلَّتْ أم كَثُرَتْ[4]. وكان لايُؤَخِّرُ إحسانَ“ ”مُحْسِنٍ لغدٍ، ويقول: ”العجب ممن يُفَرِّحُ إنسانا، فيتعجَّلُ السرورَ ويجعلُ ثوابَ مَن“ ”سَرَّه تسويفا وعِدَةً!“، فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله، لاينصرف أحدٌ ممن“ ”حضره إلّا مسرورا. ولم يكن هذا لعربىّ ولا عجمىّ قبله. غير أنه يُحْكَى عن بَهْرَامَ جُورٍ“ ”مايُقارِب هذا[5].“

(١) صـ : خلفاء بنى العباس؟

(٢) أُنظر شذرات الذهب. ”ج ١ ص ٢١٦“

(٣) كان من القائمين بالدعوة العباسية ومن رجالات أبى مُسلم الخراسانى، وكان على مقدمته عند دخوله مرو. توفى سنة ١٥٦ هـ وهو أمير خراسان. (أُنظر الفهارس فى الطبرىّ وفى آبن الأثير)

(٤) أورد صاحب ”محاسن الملوك“ مايضارع ذلك (ص ٣٠)

(٥) قارِنْ ذلك بما نقله صاحب ”مروج الذهب“ (ج ٦ ص ١٢١ و ١٢٢).

(المنصور) ,,فأما أبو جعفر المنصور، فلم يكن يظهر لنديم قطُّ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء.“
,,وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا، وبين الستارة والندماء مثلها. فإذا غنَّاه“
(٣٥) ,,المُغَنِّي فأطربه، حرَّكت الستارةَ بعضُ الجوارى فاطَّلعَ إليه الخادمُ صاحبُ الستارة“
,,فيقول: قل له: ”أحسنتَ! بارك الله فيك!“ وربما أراد أن يُصفِّق بيديه، فيقوم عن“
,,مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه، فيكون ذاك هناك. وكان لا يُثيب أحدًا من ندمائه“ ٥
,,وغيرهم درهما، فيكون له رَسْمًا فى ديوان. ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف إلى مُلْهِيَةٍ“
,,أو ضَحِكٍ أو هزْلٍ موضعَ قَدَمٍ من الأرض. وكان يحفظ كلَّ ما أعطى واحدًا منهم“
,,عشْرَ سنين ويحسبُه ويذكره له.“

وكان أبو جعفر المنصور يقول: ”مَن صنع مثل ما صُنع إليه، فقد كافأ؛ ومَن أضعفَ، كان مشكورًا؛ ومَن شكر، كان كريمًا؛ ومَن علم أن ما صَنع فإلى نفسه صنع، لم يستبطئ ١٠ الناسَ فى شكرهم ولم يستردهم فى مودّتهم. ولا تلتمس من غيرك شكر ما أتيتَه إلى نفسك ووقيتَ به عِرضك. واعلم أن (١) الطالب إليك الحاجةَ لم يُكْرِمْ وجهه عن مسألتك، فأكرِمْ وجهك عن ردّه.“

(المهدى) ,,وكان المهدىُّ فى أوّل أمره يحتجب عن الندماء، متشبِّها بالمنصور نحوًا من سنة.“
,,ثم ظهر لهم. فأشار عليه أبو عَوْنٍ (٢) بأن يحتجب عنهم، فقال: «إليك عنى، يا جاهل!“ ١٥

(١) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين** منقولة عن صه. وهى استطرادٌ أجنبىٌّ من موضوع الحديث.

(٢) هو عبد الملك بن يزيد الخراسانىّ الأزدىّ. كان من أهل الرأى ومن وجوه الشيعة القائمين بالدعوة العباسية، ومن قوّاد أبى مسلم الخراسانىّ. وكان له بلاء حسن فى تمهيد الأمر لبنى العباس. دخل بجنوده دمشق عنوة من باب كيسان ثم تعقب مروان بن محمد الجعدىّ إلى مصر عند هربه إليها، وفيها قتله. وبقى فيها ومعه السلاح والأموال والرقيق. فولّاه عليها أبو العباس السفاح مرتين: الأولى من شعبان سنة ١٣٢ = ٢٠

«إنما اللذة فى مشاهدة السرور وفى الدُّنُوِّ ممن سرَّنى. فأما من وراء وراء، فما خيرُها» «ولَذّتها؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان إلّا أنّى أُعطيهم من السرور» «بمشاهدتى مِثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم، لجعلتُ لهم فى ذلك حظًّا مُوَفَّرًا.» وكان» «كثير العطايا، يواترها(١). قلَّ من حضره إلّا أغناه. وكان لَيِّنَ العريكة، سَهْلَ الشريعة،» (٣٦)
«لذيذ المنادمة، قصير المناوَمة(٢)، ما يَمَلُّ نديمًا ولا يتركه إلّا عن ضرورة، قطيع الخناء،»
«صبورا على الجلوس، ضاحك السنِّ، قليل الأذى والبَذَاء.»

«وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق، صعْب المرام، قليل الإغضاء، سيِّئَ الظنّ(٣). قلَّ» (الهادى)
«مَن توقّاه وعرف أخلاقه، إلّا أغناه. وما كان شئٌ أبغضَ إليه من ٱبتدائه بسؤال.»
«وكان يأمر للمغنِّى بالمال الخطير الجزيل، فيقول: «لا يُعطينى بعدَها شيأ»، فيعطيه»
«بعد أيام مثل تلك العطيّة.»

= إلى سنة ١٣٥. وهو الذى أمر أصحابه بالبناء فى الأرض الفضاء التى محلها الآن جامع ٱبن طولون. وبنى هو هنالك دار الإمارة ومسجدًا عُرف بجامع العسكر. ولذلك سمى المكان كله بٱسم العسكر من ذلك الوقت، وصار فيما بعد مدينة عامرة. ثم أرسله أبو العباس السفاح على رأس الجيش المتوجه إلى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٦. ولكن الخليفة مات، فجاء أمر الخليفة الجديد أبى جعفر المنصور بالعدول عن هذه الغزوة. فأقام أبو عون ببرقة شهرًا. ثم عاد إلى مصر بجيشه فذهب إلى فلسطين لحرب الخوارج. فهزمهم وقتل منهم جمًا غفيرا. وأرسل إلى مصر ثلاثة آلاف رأس. ثم تولّى خراج مصر وصلاتها بطريق النيابة حتى جاءه التقليد فى ٢٠ رمضان سنة ١٣٧. وأقام فى هذه الولاية الثانية ثلاث سنين وستة أشهر. وعاد إلى مصاحبة المنصور وحضر معه واقعة الراوندية. فلما أفضت الخلافة إلى المهدىّ، ٱستعمله على خراسان سنة ١٥٩ ثم عزله عنها سنة ١٦١. (أُنظر الأغانى وٱبن الأثير وأبى المحاسن تغرى بردى، فى فهارسها)

(١) ص ـ : وافرها.

(٢) س ـ : قصير المياومة والملايلة.

(٣) س ـ : النظر.

ويقال إنه قال يوما، وعنده آبن جامع وإبراهيم الموصلىّ ومُعاذ بن الطبيب ـ وكان أوّل يوم[1] دخل عليه مُعاذ وكان حاذقا بالاغانى عارفا بها ـ: مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُه. فغنّاه آبن جامع غِناءً لم يحرّكه، وكان إبراهيم قد فهم غرضه فغنّاه:

سُلَيْمَى أجمعَتْ بينَا. * فأَيْنَ تَقُولُها[2] أَيْنَا ؟

(٢٧) فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته، وقال: "أَعِدْ بالله، وبحياتى!" فأعاد، فقال: ! «أنت صاحبى فاحتكِمْ» فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائط[3] عبد الملك بن مَرْوان وعينه الحرّارة[4] بالمدينة! قال: فدارت عيناه فى رأسه حتّى صارتا كأنهما جمرتان ثم قال: «يا آبن اللخناء! أردتَ أن تَسْمَعَ العامّةُ أنك أطربْتَنى، وأنّى حكّمْتُك فأقطعتُك! [أما والله][5] لولا بادرةُ جهلك التى غلبتْ على صحيح عقلك لضربتُ الذى فيه عيناك!» ثم سكت هُنَيْهَةً. قال إبراهيم: فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بينى وبينه ينتظر أمره. ثم دعا إبراهيم الحرّانىّ[6]، فقال: «خذ بيد هذا الجاهل، فأدخِلْه بيت المال، فليأخُذْ منه ماشاء!» فأخذ الحرّانىّ بيدى حتّى دخل بى بيت

(١) صه: مَن.

(٢) "تقولها" هنا مثل "تَظُنُّها" معنًى وعملًا. وقد تحرفت هذه الكلمة فى كثير من كتب الأدب المطبوعة. وهذه القصة التى ذكرها الجاحظ أوردها الطبرى أيضا (سلسلة ٣ ص ٥٩٥) باختلاف قليل، وهى غير واردة فى الأغانى، وإنما هنالك حكاية أخرى وفيها الأبيات بأكملها. (أنظر ج ٢١ ص ١٦٦)

(٣) أى بستان.

(٤) الينبوع الذى يخرج منه جدول يتدفق ماؤه.

(٥) الزيادة عن الطبرى (سلسلة ٣ ص ٥٩٦).

(٦) هو عديل هارون الرشيد. وكان من ندماء الهادى وهو ولىّ العهد. ويظهر من كلام آبن الأثير أنه كان قيّما على خزائن الأموال فى أيام الهادى. (الأغانى ج ٦ ص ٦٧ و ج ١٧ ص ١٧)

المال، فقال: كم تأخذ؟ فقلتُ: مائة بدرة[(١)]. فقال: دعنى أؤامره. قلتُ: فآخذُ تسعين. قال: حتى أؤامره. قلتُ: فثمانين. قال: لا. فأبى إلّا أن يؤامره، فعرفتُ غرضه، فقلت له: آخذُ سبعين لى، ولك ثلاثون. قال شأنك![(٢)] قال: فانصرفتُ بسبعمائة ألف، وانصرف مَلَك الموت عن الدار[(٣)].

(٣٨) (الرشيد)

قال[(٤)]: "وكان الرشيد فى أخلاق أبى جعفر المنصور، يمتثلها كلَّها إلّا فى العطايا" "والصِّلات والخِلَع. فإنه كان يقفو فعل أبى العبّاس والمهدىّ. ومَنْ خبَّرك أنه رآه" "قطُّ وهو يشرب إلّا الماء، فكذِّبْه[(٥)]. وكان لا يحضُر شربه إلّا خاصُّ جواريه. وربما" "طرب للغناء فتحرك حركةً بين الحركتين فى القِلَّة والكثرة."

وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَلَ للغنّين مراتب وطبقات، على نحو

---

(١) البدرة فى الأصل جلد السخلة (أى ولد الضائنة أو الماعزة). كانوا يضعون فيها الأموال، ثم أطلقوا اسمها على المال نفسه مجازا. والمستفاد من كتب اللغة أن البدرة كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. ورواية الجاحظ هنا تدل على أن مقدارها فى أيام العباسيين كان عشرة آلاف درهم.

(٢) فى سـ، صـ: شارك. وفى الطبرى: "قال الآن جئتَ بالحق، فشأنك!" (سلسلة ٣ ص ٥٩٦)

(٣) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة باختصار ألفاظ الجاحظ. (ص ٣٠ و ٣١)

(٤) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى هذه الحكاية كلها للؤلف.

(٥) هذا النصّ الصريح يؤيد رأى ابن خلدون فى مقدمته (ص ١٤). وذلك أن "إلّا" هنا معناها "غير" كما وردت فى غير ما آية قرآنية وبيت شعرىّ. فيكون المعنى الذى أراده محدِّث الجاحظ: لو خبَّرك إنسان بأنه رأى هارون وهو يشرب شرابا غير الماء، فاعلمْ أنه كاذب. لأن الرشيد، كان إذا أراد الشرب، فإنما يشرب بحضرة خاصّ جواريه دون سائر الناس، بحيث لم يره أحد يشرب شيئا سوى الماء، حتى يجوز له الإخبار بذلك عنه [وانظر ص ١٥٣ من هذا الكتاب]. يؤيد ذلك ما وقع له مع ابن بختيشوع بشأن السمكة التى منعه الطبيب من أكلها. (مروج الذهب ج ٦ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦؛ وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٩)

ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان. فكان إبراهيم [الموصلىّ](١) و[إسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلزل [منصور الضارب] فى الطبقة الأُولىٰ. وكان زلزلٌ(٢) يضرب، ويُغنّى هذانِ(٣) عليه.

---

(١) الأسماء والكُنىٰ والالقاب الموضوعة بين [ ] فى هذه الصفحة والتى تليها مأخوذة عن الأغانى لأبى الفرج.

(٢) كان زلزل هذا ممن يضرب به المثل فى حسن الضرب بالعود وكان من الأجواد. وقد اشتهر فى أيام المهدىّ والهادى والرشيد. ومن آثاره العمرانية بركةٌ أنشأها فى بغداد ووقفها على المسلمين، فاشتهرت باسمه: واشتهرت المحلة الكائنة فيها باسمها. قال فيها نفطويه النحوى:

لو أنّ زُهيرا وامرأ القيس أبصرا * مَلاحَةَ ما تحويه بركة زَلْزَل،
لَمَا وَصَفَا سَلْمىٰ ولا أُمَّ جُندُبٍ * ولا أكثرا ذكر الدَّخول فَحَوْمَلِ.

وقد أكثر الشعراء من ذكرها.

غضب عليه الرشيد فحبسه سنين. وكانت أُخته تحت إبراهيم الموصلى، فقال إبراهيم فيه:

هل دهرُنا بك عائدٌ يا زَلْزَلُ * أيامَ يبغينا العدوّ المُبْطِلُ،
أيامَ أنت من المكاره آمنٌ * والخير مُتَّسِعٌ علينا مُقْبِلُ؟
يا بُؤْسَ مَن فقد الإمام وقُرْبَه! * ما ذا به من ذِلّة، لو يعقل؟
ما زلتُ بعدك فى الهموم مردّدا * أبكى بأربعة كأنى مثكل.

فرضى عنه الرشيد وأخرجه من الحبس. (أُنظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٥٩٢ وج ٤ ص ١٢٣ و ٢٥٢؛ وأنظر شفاء الغليل للخفاجىّ ص ١١٧؛ والاغانى ج ٥ ص ٢٢)

(٣) أى صاحباه الآخران وهما إبراهيم الموصلىّ وابن جامع. والذى جاء "فى الأغانى" (ج ٥ ص ٤٠) أن إبراهيم الموصلى وزلزلا وبرصوما اجتمعوا بين يدَىِ الرشيد فضرب زلزلٌ وزَمَر برصوما وغنّى إبراهيم:

صحا قلبى وراغ إلىّ عقلى * وأقصرَ باطلى ونسيتُ جهلى.
رأيتُ الغانيات، وكنّ خُزْرًا * إلىّ، صرمنَنى وقطعنَ حبلى.

فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح: يا آدم! لو رأيتَ مَن يحضرنى من ولدكَ اليوم، لسرّك! ثم جلس =

والطبقة الثانية سُلَيْم بن سلام (١) [أبو عبيدالله الكوفيّ] وعمرو الغزال (٢) ومَن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير. وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصِلاتهم. وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأُولى بالمال الكثير الخطير، جعل لصاحبيه اللذين معه فى الطبقة نصيبا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا. وإذا وصل أحدا من الطبقتين الأُخريَيْن بصلة، لم يقبل واحدٌ من الطبقة العالية منه درهما، ولا يحتريُ أن يعرض ذلك عليه. (٣٩)

قال (٣): «فسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق! ما تقول فى آبن جامع؟ لخرّك رأسه [و] قال: خَمْرُ قُطْرَبُّل، يعقل الرجْل ويُذهِب العَقْل. قال: فما تقول فى إبراهيم الموصلىّ؟ قال: بستانٌ فيه خوخ وكُمَّثْرَى وتُفَّاح وشَوْكٌ وخُرْنُوبٌ. قال: فما تقول فى سليم بن سلام؟ فقال: ماأحسنَ خِضابه! قال: فما تقول فى عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه (٤)!»

قال: وكان منصورٌ زلزل من أحسن وأحذق مَن بَرَأَ اللهُ بالْجَسّ. فكان إذا جَسّ العُود، فلو سمعه الأحنف (٥) ومَن تحالم فى دهره كله، لم يملكْ نفسه حتّى يطرَب.

= وقال: أستغفر الله!

وفى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٤٧) أن زلزلا كان يضرب على إبراهيم، يعنى الموصلى.

(١) صـ: سليمان بن سلامة (وهكذا فى بقية الحكاية).

(٢) فى سـ، صـ: «العزال» بالعين المهملة (وهكذا فى بقية الحكاية). وقد اعتمدتُ ما أورده صاحب الأغانى (ج ١١ ص ٣٤ و ٧٧ وج ٢٠ ص ٦٤ و ٦٥).

(٣) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى الحكاية للجاحظ.

(٤) سـ: «ثيابه». وفى الاغانى (ج ٦ ص ٧٢) أن برصوما الزامر ذكر إبراهيم الموصلى وآبن جامع، فقال: «الموصلىُّ بستانٌ تجد فيه الحلو والحامض، وطريا لم ينضج، فتأكل منه من ذا ومن ذا؛ وآبن جامع زِقُّ عسل، إن فتحتَ فمه خرج عسل حُلوٌ، وإن خرقتَ جنبه خرج عسل حُلوٌ، وإن فتحت يده خرج عسل حُلوٌ: كله جيّد.»

(٥) هو أبو بحر الضحّاك بن قيس. ينتهى نسبه إلى زيد مناة. وهو الذى يضرب به المَثَل فى الحلم. وكان آية فى الجِدّ والوقار. (أُنظر ترجمته فى آبن خلكان والأغانى وغيرهما)

قال إبراهيم[1] : فغنّيتُ يومًا علىٰ ضربه ، فخطّأنى . فقلتُ لصاحب الستارة : هو واللهِ أخطأَ ! قال : فرَفع الستارة ، ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين : أنت واللهِ أخطأتَ ! فخِمِيَ زَلزلُ وقال : يا إبراهيم ، تخطّئنى ؟ فوالله ما فتح أحدٌ من المغنين فاهُ بغير لفظٍ إلّا عَرَفْتُ غرضَه ! فكيف أُخطِئُ وهذه حالى ؟ فأداها صاحبُ الستارة ، فقال الرشيد : قل له : صدقتَ ! أنت كما وصفتَ نفسك ، وكَذَبَ إبراهيم وأَخْطَأَ . قال إبراهيم : فغمّنى ذلك ، فقلتُ لصاحب الستارة : أبلِغْ أمير المؤمنين ، سيّدى ومولاى ، أنّ بفارسَ رجلا يقال له سُنَيْد[2] ، لم يخلُق الله أضربَ منه بعود ولا أحسن مَجَسًّا ، وإن بعث إليه أمير المؤمنين فحمله عرف فضله وتغنّيتُ علىٰ ضربه . فإن زَلْزَلًا يُكايدنى مُكايدةَ القُصّاص والقرادين . قال : فوجّه الرشيد إلىٰ الفارسىّ فحُمِل علىٰ البريد ، فأقلق ذلك زَلزَلًا وغمّه . فلما قدم بالفارسىّ ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاؤا بالعيدان قد سُوِّيتْ . وكذلك كان يُفعَل فى مجلس الخلافة ، ليس يُدفَع إلىٰ أحدٍ عودُه فيحتاج إلىٰ أن يحرّكه لأنها قد سُوِّيتْ وعُلِّقتْ مثالثها مُشاكِلةً للزِّيرة[3] علىٰ الدقة والغلظ . قال : فلما وُضع عُود الفارسىّ فى يديه ، نظر إليه منصور زلزل ، فأسفر وجهه وأشرق لونه . فضرب وتغنّىٰ عليه إبراهيم . ثم قال صاحب الستارة لزلزل : يامنصور : اِضرِبْ ! قال : فلما جسّ العود ، ماتمالك الفارسىّ أنْ وثب من مجلسه بغير إذنٍ حتّى قبل رأس زَلْزَلٍ وأطرافه ، وقال : مِثْلُكَ ـ جُعِلتُ فداك ! ـ

(١) أى إبراهيم الموصلىّ حكاية عن نفسه . وهذه القصة من آستطرادات الجاحظ أيضا

(٢) لم يذكره صاحب الأغانى ، ولم يورد هذه الحكاية . وهى غير واردة فى صـ .

(٣) جمع زير ، مثل ديك وديكة . والزير هو الوتر الدقيق من الأوتار وأحكمها فتلًا (فى عود الطرب) . فكأنّ المؤلف قال : وعُلِّقتْ مثالثه مشاكلة لمثانيه . قال المفضل بن سلمة النحوى فى كتاب الملاهى مانصه : "ويقال لأوتاره [أى العود] المحابضُ واحدها مِحبَض وهى الشُّرَع واحدتها شِرْعة . فمنها الزير ، والذى يليه المَثْنَى ومنهم من يسميه الثانى ، والمَثْلَث ومنهم من يسميه الثالث ، والبَمّ . ويقال التى يسميها الفرس دساتين ، العَتَب . وكل ذلك قد جاء فى الشعر ."

obeikandl.com

لا يُمتهَن ويُستعمل ؛ مثلك يُعبَدُ. فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسيّ ، فأمر له بصلة وردّه إلى بلده.

* وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم. نزل بين ظَهرانَيْ قوم ، وقد كان يحلّ لهم أخذ الزكاة. فما مات حتّى وجبت عليهم الزكاة. *(1)

٥ ,, وكان إسحاق بَرْصُومَا فى الطبقة الثانية. قال: فطرب الرشيد يوما لزمره ، فقال" ,, له صاحب الستارة: يا إسحاق! أُزْمُرْ على غناء آبن جامع. قال: لا أفعلُ. قال: يقول" ,, لك أمير المؤمنين ، ولا تفعلُ؟ قال: إن كنت أزمُرُ على الطبقة العالية ، رُفِعْتُ إليها." ,, فأما أنْ أكون فى الطبقة الثانية وأزْمُرَ على الأُولى ، فلا أفعلُ! فقال الرشيد لصاحب" ,, الستارة: ارفعه إلى الطبقة الأُولى ؛ فإذا قمتُ ، فادفع البساط الذى فى مجلسهم إليه." ١٠ ,, فرُفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط ، وكان يساوى ألفَىْ دينار. فلما حمله إلى" ,, منزله آستبشرت به أُمُّه وأخواته. وكانت أمه نَبَطِيَّةً(2) لكّاء. فخرج برصوما عن منزله" ,, لبعض حوائجه ، وجاء نساءُ جيرانه يُهَنِّئْنَ أُمَّه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها." (٣٢) ,, فأخذت سِكِّينًا وجعلت تقطع لكل مَن دخل عليها قطعة من البساط ، حتّى أتت على" ,, أكثره. فجاء برصوما فإذا البساط قد تُقُسِّمَ بالسكاكين. فقال: وَيْلَكِ! ماصنعتِ؟" ١٥ ,, قالت: لم أدرِ ، ظننتُ أنه كذا يُقَسَّم. فحدّث الرشيد بذلك ، فضحك ووهب له آخر."

* وزعم سعيد بن وهب(3) أنّ إبراهيم الموصلىّ غنّى أمير المؤمنين هارون صوتًا ، فكاد

---

(١) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ .

(٢) التى لا تُقيم العربية لعجمة لسانها . (قاموس)

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن وهب البصرىّ . كان كاتبا شاعرا مطبوعا . مات فى أيام المأمون . (أُنظر أخباره فى الأغانى ج ٢١ ص ١٠٤ — ١١٠) ٢٠

يطير طرباً، فاستعاده عامّة ليله، وقال: «مارأيت صوتاً يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والسخف غير هذا الصوت!» فأقبل إبراهيم، فقال: «يا أمير المؤمنين! لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم، أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحةً، كنتَ أَسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟» قال: «والله لأَنَا أَسَرُّ بهذا الصوت منى بألف ألف، وألف ألف!» قال: «فلو فقدتَ من بيت مالكَ مائةألف كان أشدَّ عليك، أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟» قال: «بل ألف ألف، وألف ألف أهونُ علىَّ.» قال: «فَلِمَ لا تَهَبُ مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشيءٍ فَقْدُ ألفى ألف أهونُ عليك منه؟» فأمر [له] بمائتى ألف درهم.(١)*

(الامين) قلتُ لإسحاق: فالمخلُوع،(٢) أين كان ممن ذكرتَ؟

قال: "ما كان أعجبَ أمرَه كلَّه! فأما تبذُّله، فما كان يبالى أين قعد ومع مَن قعد." "وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خَرَّقَها كلَّها وألقاها عن وجهه حتّى" "يقعد حيثُ قعدوا. وكان مِنْ أعطى الخلق لذهبٍ وفضةٍ، وأنهبهم للأموال إذا" "طَرِب أوْ لَهَا. وقد رأيتُه وقد أمر لبعض(٣) أهل بيته فى ليلةٍ بوقْرِ زورقٍ ذهباً،" "فانصرف به. وأمر لى(٤) ذات ليلة بأربعين ألف دينار، فَحُمِلتْ أمامى. ولقد غنَّاه" "إبراهيم بن المهدىّ غِناء لم أرتضه. فقام عن مجلسه فأكبَّ عليه فقبَّل رأسه. فقام"

(١) هذه الجملة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن ص ـ.

(٢) يعنى الأمين الخليفة العباسى. وبذلك اللقب يسميه أغلب الكتّاب والمؤرّخين المعاصرين له أو الذين بعده بقليل، لقرب عهدهم بخلعه وانتهاره بينهم. وشاهدُ ذلك بين أيدينا الآن، فإن الأتراك لا يُسَمُّون السلطان عبد الحميد فى كتاباتهم وأحاديثهم إلّا باسم "المخلوع".

(٣) الإشارة إلى إبراهيم بن المهدىّ عمّ الخليفة. (انظر الأغانى ج ٩ ص ٧١)

(٤) الضمير يعود إلى راوى الحكاية وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ.

(٣٦) "ابراهيم فقبَّل ما وطِئَتْ رجلاه من بِساطه. فأمر له بمائتَيْ ألف دينار. ولقد رأيتُه" "يوما، وعلى رأسه بعض غلمانه، فنظر إليه فقال: وَيْلَكَ! ثيابُك هذه تحتاج إلىٰ أنْ" "تُغْسَلَ. انطلقْ، فَخُذْ ثلاثين بَدرة، فاغسِلْ بها ثيابك."

ولقد حدَّثنى عَلَّوَيْه [الأعسر وهو أبو الحسن علىّ بن عبد الله بن سيف (١)] عنه قال: لما أُحِيطَ به وبلغت حجارة المنجنيق بِساطه، كان عنده فغنَّته جاريةٌ له بغناء تركتْ فيه شيأً لم تُجِدْ حكايته. فصاح: يا زانية! تغنينى الخطأ! خذوها! فَحُمِلَتْ. وكان آخرَ العهد بها.

قلتُ: فالمأمون؟ (المأمون)

قال: "أقام بعد قدومه عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء. ثم سمعه من وراء" "حجاب، متشبِّها بالرشيد. فكان كذلك سَبْعَ حِجَج. ثم ظهر للندماء والمغنين."

قال: "وكان حين أَحَبَّ السماع ظاهراً بعينه، أَكْبَرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه."

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ (٢) فغمزه بعضُ مَن حضر، وقالوا: مايُغادر تيهًا وبَأْوًا (٣). فأمسك عن ذكره. قال: فجاءه زُرْزُر يوما فقال له: يا إسحاق، نحن اليومَ عند أمير المؤمنين! فقال إسحاق: فغَنِّه بهذا الشعر:

---

(١) الزيادة التى بين [ ] عن كتاب الأغانى لأبى الفرج.

(٢) كان المأمون يعقد مجلسا لتفريق الأرزاق، فكان إسحاق هذا أوّلَ مَن يدخل عليه فى طائفة الوزراء، ثم القُوّاد، ثم القضاة، ثم الفقهاء والمعدِّلين، ثم الشعراء ثم المغنِّين، ثم الرماة فى الهَدَف. (عن ذيل أمالى القالى ص ٩٠)

(٣) البأْو هو الفخر والكِبر والتيه. قال حاتم الطائىّ:

فما زادنا بأْوًا على ذى قرابة * غِنانا، ولاأزرى بأحسابنا الفقرُ.

وآنظر هذه القصة أيضا فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٤٤).

يا سَرْحَةَ الماءِ (١) قد سُدَّتْ مَوارِدُهُ * أما إليكِ طريقٌ غيرُ مسدودِ؟
لِحَائِمٍ حَامَ حتَّى لاحَ (٢) لَاكَ (٣) به * مُحَلَّأٌ (٤) عن سبيلِ الماءِ مَطرودِ (٥).

فلما غنّاه به زُرْزُر، أطربه وأبهجه وحرّك له جوارحه. وقال: ويلك! مَن هذا؟

---

(١) وردت هذه الكلمة هكذا: "سرحة" في سـ، صـ وفي "الأغاني" والطبري و"معجم الأدباء" وأكثر كتب الأدب التي وقعت لنا، ومنها محاسن الملوك. وأما صاحب العقد الفريد فقد روى صدر البيت هكذا: "يامشرع الماء". والرواية الأولى هي الأصدق والأصوب، وإن كانت الثانية فيها شبهة من جهة المعنى. والسَّرحةُ شجرةٌ عظيمة بلا شوك تنبت في بلاد العَرَب وفي نجد خصوصًا، وورقها أخضر دائمًا، وهي جميلة المنظر. [ويسمّيها أهل شنقيط (آتيل). وفي أشعارهم "ذو السَّرح" وهو موضع يسمّى عندهم باللغة البربرية "إنواتيل" وهو تعريبٌ له كما ترى. استفدت ذلك من الأستاذ الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي.] ومثل ذلك في بلاد العرب مواضع كثيرة مثل السرحة، وذات السرح، وذو السرح. (أُنظر ياقوت ج ٢ ص ٥٠٣، ج ٤ ص ٤٨٠؛ وج ٣ ص ٢٨٦؛ وج ١ ص ٥٣٦ و٥٨٠، ج ٣ ص ٧٨٢)

وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب أنذر الشعراء بالجلد إذا هم شبّبوا بالنساء. فقال حُمَيْد ابن ثَوْر في ضمن قصيدة له:

تُرَانِي إنْ عَلَلْتُ نفسي بسرحةٍ * من السَّرْحِ موجودٌ على طريقُ
أبى اللهُ إلّا أنّ سَرْحَةَ مالكٍ * على كلِّ سَرْحاتِ الحضاءِ تَرَوَّقُ

(وانظر ياقوت ج ٣ ص ٧١).

هذا وقد أورد صاحب "لسان العرب" البيتين اللذين نحن بصددهما وقال كنّى بالسرحة النابتة على الماء عن المرأة، لأنها حينئذ أحسن ما تكون. (أُنظر مادة س ر ح)

(٢) في صـ: "حيام" وكذلك في الأغاني (ج ٩ ص ٦١)، وفيه "حوام" (ج ٥ ص ١٠٦) وقد أورد هذه الحكاية باسم يلويه بدلا من زرزر وأضاف بيانات أخرى. ولكنها هنا أوفى وأكمل.

(٣) ممنوع أي مطرود.

(٤) في الأغاني في الموضعين المذكورين: "طريق". وكذلك في صـ. وفي لسان العرب: "طريق الورد".

(٥) استحسن الأصمعيّ هذا الشعر وقال: "غير أن هذه الحاآت لو اجتمعت في آية الكرسيّ، لعابتها". (عن الوسيط في تراجم أدباء شنقيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطي، طبع القاهرة سنة ١٩١١ ــ ص ٣١١)

قال: عبدُك المجفوُّ المطَّرَح، ياسيِّدى، إسحاقُ. قال: يحضُر الساعةَ. فجاءه رسوله، وإسحاقُ مستعدٌّ، قد عَلِمَ أنه إنْ سمع الغناء من مُجيدٍ مؤدٍّ أنه سيبعث إليه. فجاءه الرسول. فَحُدِّثْتُ[1] أنه لما دخل عليه ودنا منه، مدّ يده إليه ثم قال: آدنُ منى! فأكبَّ عليه واحتضنه المأمونُ وأدناه وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيًا إليه ومسرورا به[2].

✦✦✦

مباسطة الملك لندمائه

ومن أخلاق الملك السعيد تركُ القُطوب فى المنادمة، وقلّة التحفُّظ علىٰ ندمائه، و[لا][3] سيَّما إذا غُلِبَ أحدُهم علىٰ عقله، وكان غيرُه أملكَ به منه بنفسه.

(٣٥) وللسكر حدّ إذا بلغه نديمُ المَلِكِ، فأجملُ الأُمور وأحراها بأخلاقه أنْ لا يؤاخذَه بزَلَّةٍ إنْ سبقته، ولا بلفظةٍ إنْ غلبتْ لسانه، ولا بهفوةٍ كانت إحدىٰ خواطره.

حد الإغضاء عن الزلات

والحدُّ فى ذلك أنْ لا يعقل مايقول ولا ما يقال له، وإنْ خُلِّىَ ونفسَه رمىٰ بها فى مَهواة، وإن أراد أحدٌ أخْذ ثيابه لم يمانعه.

مواطن المعاقبة عليها

فأما إذا كان ممن يعرِف ما يأتى وما يَذَرُ، وكان إذا رام أحدٌ أخْذَ مامعه قاتله دونه، وكان إذا شُتِم غَضِبَ وانتصر[4]، وإذا تكلَّم أفصح وقلَّ سَقَطُه: فإذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زَلَّةٌ، فعلىٰ عَمْدٍ أتاها وبقصدٍ فعلها. فالملك جديرٌ أن يعاقبه بقدر ذنبه. فإنّ ترك عقوبة هذا ومن أشبهه، قدحٌ فى عزِّه وسلطانه.

---

(١) الضمير للجاحظ.

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة بألفاظ الجاحظ مختصرةً. (ص ٦١)

(٣) لاشك أن أداة النفى (لا) قد سقطت من عبارة الجاحظ. وقد نصوا على وجوبها واستشهدوا بقول امرئ القيس ✲ ولاسيَّما يوم بدارة جُلْجُلِ ✲ وأكَّد أئمة اللغة أن من أهملها فقد أخطأ. (انظر التسهيل وشرحه وخاتمة الأشمونىّ فى باب الاستثناء، وانظر البيان الوافى فى "تاج العروس" (مادة س وى). [وانظر أيضا ص ١٥٧ من هذا الكتاب].

(٤) أى لنفسه.

الاقتصاد فى العقوبة

ومن الحقّ علىٰ الملك أنْ لايُجاوز بأهل الجرائم عقوبةَ جرائمهم. فإنَّ لكلِّ ذَنْبٍ عقوبةً: إمَّا فى الشريعة والنواميس، وإمَّا فى الإجماع والاصطلاح. فَمَنْ تَرَكَ العقوبة فى موضعها، فبالحَرَى أن يعاقب مَن لاذنب له. وليس بين ترك العقوبة (إذا وجبتْ) وعقوبة من لا ذنب له، فرقٌ. وإنما وضع الله الملوك بهذه المواضع الرفيعة ﴿٣٦﴾ ليُقوّموا كلَّ ميل ويَدْعَموا كلَّ إقامة.

٥

✣

تفرّد الملك بالتطيب والتجمل ونحوهما

ومن أخلاق الملك أنْ لايشارك بِطانته وندماءه فى مَسِّ طِيبٍ ولا مِجْمَرٍ. فإنَّ هذا وما أشبهه يرتفع الملك فيه عن مساواة أحدٍ.

وكذا يجب علىٰ بِطانة الملك وقرابتــه(١) أنْ لا يَمَسُّوا طيبا إذا تطيَّبَ، لِينفردَ المَلِكُ بذلك دونهم.

وليس الطِّيب كالطعام والشراب اللذين لا بدّ من مشاركة الندماء فيهما.

١٠

فأما كلُّ ما أمكن الملكَ أن ينفرد به دون خاصّته وحاشيته(٢)، فمن أخلاقه أن لا يُشارِك أحدا فيه.

وكذا حُكِيَ عن أنوشروان ومعاوية بن أبى سُفيان. وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد مايقرب من هذا.

١٥

وأوْلىٰ الأمور بأخلاق الملك ــ إن أمكنه التفرّد بالماء والهواء ــ أنْ لا يَشْرَك فيهما أحدًا. فإن البهاء والعز والأُبَّهَة فى التفرُّد.

---

(١) نهىٰ صاحب القاموس عن استعمال "القرابة" بمعنى الأقارب، ونسبه الجوهرىُّ إلى العامّة، ووافقهما الأكثرون ومنهم الحريرىّ فى "درّة الغوّاص". ومن رأيهم أن الواجب أن يقال "ذوو القرابة". ولكن هذا اللفظ ورد بهذا المعنىٰ فى الحديث الشريف، وعليه جرىٰ الجاحظ فى جميع هذا الكتاب. (وانظر التفصيل فى تاج العروس فى مادة ق ر ب)

٢٠

(٢) الحاشّة هى العامة، وأيضا أخِصّاء الرجل من أهله وولده وذوى قرابته.

سنة ملوك الفرس فى ذلك

ألا ترىٰ أنّ الأُمم الماضية من الملوك، لم يكن شئ أحبَّ إليهم من أنْ يَفعلوا (١) شيأ تعجز عنه الرعيّة، أو يتزيّوْا بِزِىٍّ يَنْهَوْن الرعيّة عن مثله.

فمن ذلك أردشير بن بابك، وكان أنبل ملوك (٢) بنى ساسان. كان إذا وَضَعَ التاجَ علىٰ رأسه، لم يضع أحدٌ فى المملكة علىٰ رأسه قضيبَ رَيْحانٍ متشبّهًا به. (٣٧)

وكان إذا ركب فى لِبْسة (٣)، لم يُرَ علىٰ أحدٍ مِثْلُها. وإذا تختَّم بخاتَم، فحرامٌ علىٰ أهل المملكة أن يتختَّموا بمثل ذلك الفَصِّ، وإن بَعُد فى التشابه.

سنة سادات العرب والخلفاء فى ذلك

وهذه من فضائل الملوك. وطاعةُ أهل المملكة أنْ تَتَحَامَىٰ أكثر زِىِّ الملك وأكثرَ أحواله وشِيَمه، حتّىٰ لا يأتى مالا بدّ لها منه.

وهذا أبو أُحيحة سعيد بن العاص. كان إذا اعتمّ بمكة لم يعتمّ أحدٌ بعِمَّةٍ مادامت علىٰ رأسه (٤).

وهذا الحجّاج بن يوسف. كان إذا وضع علىٰ رأسه طويلة (٥)، لم يَجْتَرِئْ أحدٌ من خلق الله أن يدخل وعلىٰ رأسه مثلُها.

وهذا عبد الملك بن مَرْوَان. كان إذا لبس الخُفَّ الأصفر، لم يلبَس أحدٌ من الخلق خُفا أصفر حتى ينزِعه.

---

(١) فى سـ، صـ: يفعل.

(٢) صـ: أمثل.

(٣) حالةٌ من حالات اللبس.

(٤) أوّل من روىٰ ذلك ابن الكلبىّ فى كتاب الأصنام الموجودة نسخته الوحيدة المعروفة فى العالَم بخزانة كتبى. قال (فى ص ٢٠ من الأصل و ٢٠ من طبعتنا): "وكان سعيد بن العاص أبو أحيحة يعتمّ بمكة. فإذا اعتم لم يعتمّ أحدٌ بلون عمامته". وروى ذلك أيضا ابن دريد فى كتاب الاشتقاق (ص ٢٩) وقال إنه ذو العمامة وإن "أُحَيْحة تصغير أُحَة وهو مايجده الانسان فى قلبه من حرارة غيظ وحزن. والأُحَة والأُحاح واحد وقد استقصينا هذا فى كتاب الجمهرة".

(٥) أى قلنسوة طويلة عالية. وكان هذا النوع من القلانس خاصّا بالأُمراء، وبالقضاة أيضا (كما تدلّ على ذلك عبارة البيهقى فى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٣).

وهذا إبراهيم بن المهدىّ بالأمس[1] . دخل علىٰ [أحمد] ٱبن أبى دُؤاد[2] [بن علىّ] وعليه مُبَطَّنة مُلَوَّنة من أحسن ثوب فى الأرض، وقد ٱعتمّ علىٰ رأسه رُصافيَّةً[3] بعمامةٍ خزّ سوداء لها طرفان خلفه وأمامه، وعليه خُفٌّ أصفرُ، وفى يده عُكّازة آبنوس ملوّح بذهبٍ، وفى إصبعه فصّ ياقوت تضىء يده منه. فنظر إلىٰ هيئةٍ ملأَتْ[4] قلبه، وكان جسيما، فقال: "يا إبراهيم! لقد جئتَنى فى لِبْسةٍ وهيئةٍ ماتصلُحُ إلا لواحدٍ من الخلق[5]." فٱنصرَف فلم يأْتِهِ حتّى مات. ٣٨

وحدّثنى أبو حسّان الزيادىّ[6] (وذَكَرَ الفضلَ بن سَهْلٍ فترحَّم عليه) وقال: وجَّهَ إلىّ فى ليلة ـ وقد أَوَيْتُ إلىٰ فراشى ـ رسولاً فقال: يقول لك ذو الرياستين:

---

(١) أى من عهد قريب من المؤلف. [وٱنظر ص ١٠٤ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٢٦ من هذا الكتاب]

(٢) من أكابر رجالات بنى العباس وخصوصا فى دولة المأمون والمعتصم والواثق.

(٣) هذه العبارة توضّح لنا ما لم يتيسر للعلامة دوزى Dozy الوقوف عليه أثناء تأليفه لمعجم الثياب عند العرب Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes. فيؤخذ من كلام الجاحظ هنا ومما يليه بأربعة عشر سطرا أن الرصافية هيئة عمّة على قلنسوة خاصة بالخليفة أو ولىّ عهده. ويؤخذ من كلام ٱبن خلكان (فى ترجمة جعفر البرمكى) أن أكابر بنى هاشم كان لهم هذا الحق أيضا. ذكر ٱبن خلكان أن عبد الملك بن صالح دخل مجلس جعفر هذا، وقال إنه كان على رأسه رصافية. وقد روى صاحب الأغانى هذه الحكاية بحرفها تقريبا (جزء ٥ ص ١١٨) وقال إن عبد الملك نزع قلنسيته. فذلك دليل على أن الرصافية نوع مخصوص من القلانس المعممة.

(٤) صـ: فنظر إليه بهيبة.

(٥) يعنى الخليفة.

(٦) من أكابر فقهاء بغداد الذين ٱمتحنهم المأمون بخلق القرآن. وهو من أهل الفتوىٰ والرواية. وقد ولاّه المتوكل قضاء مدينة الشرقيّة بمصر سنة ٢٤١ (أبو المحاسن فى "النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٦٣٩ و ٧٣٥)

لاتعتمّ غدًا على قلنسوة إذا حضرتَ الدارَ[1]. قال: فَبِتُّ واجمًا، وأنا لا أعلم مايريد بذلك. وغَدَوْتُ، وغدا الناس على طبقاتهم ومراتبهم. فجاء الحسين[2] بن أبى سعيد إلى مَن فى الدار، فقال: إن أمير المؤمنين يقعد فى هذا اليوم ويعتمّ على قلنسوة، فانتزعوا عمائمكم!

وحدّثنى بعض أصحابنا عن الحسن بن قريش[3] قال: لما مات القاسم بن الرشيد، وجّه إلىّ المأمونُ رسولا فأتيتُه. فجعل يسألنى عن عياله وعن أمواله، ويشكوه إلىّ، ويقول: كان يفعل كذا ويفعل كذا. فكان فى تلك الشكاية أن قال: وكان إذا ركب بمَرْو[4]، ركب فى رُصَافيّة[5].

ومن أخلاق الملك إذا علم أن بعض النّدماء قد بلغ غاية مجهوده فى الشرب وأن الزيادة بعد ذلك تضر ببدنه وجوارحه أن يأمر بالكفّ عنه، وأنْ لا يُكَلَّف فوق وسعه. فإنه مَن تجاوز حقَّ العدل عن الخاصّة، لم تطمع العامة فى إنصافه.[6] عدل الملك فى مجلس الشراب

(٣٩) مكالمة الندماء للملوك

ومن حقّ الملك أنْ لا يكلّمَه أحدٌ من الندماء مبتدئاً ولا سائلًا لحاجةٍ، حتّى يكون

(١) يعنى قصر الخلافة. والحكاية تدل على أن الواقعة حصلت بمرو. لأن الفضل بن سهل قُتل فى بلده (سرخس) عند عودة المأمون إلى بغداد.

(٢) صـ: الحسن.

(٣) صـ: قريش. وانظر الطبرى (سلسلة ٣ ص ٦٥٢) فقد ورد فيه اسم هذا الرجل. وكان من خاصّة المأمون، وقد حدّثه الخليفة عن أخيه القاسم هذا. (المحاسن والمساوى ص ١٨٧)

(٤) متى أطلق الكُتّاب هذا الاسم، فإنما يريدون به مرو الشاهجان، لا مرو الرُّوذ. والأولى هى أكبر مدائن خُراسان، وكان المأمون عاملا عليها لأبيه.

(٥) تأفّف المأمون لأن أخاه كان يتعمّد التشبه به؛ ولإيراع الواجب فى تركه يتفرد بالرصافية فى عاصمة ملكه؛ ولو أن للقاسم حقا فى لبسها لأنه هو أيضا ابن الخليفة.

(٦) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * *: منقولة عن صـ.

هو المبتدئ بذلك[1]. فإنْ جهل أحدٌ ما يلزمه فى ذلك، تقدّم إليه فيما يجب عليه. فإنْ عاد، فعلىٰ الموكّل بأمر الدار أن يُحسن أدبه وأنْ لَا يأذَنَ له فى الدخول، حتّٰى يكون الملك يبتدئ ذكره. ثم يوعز إليه أنه إن عاد، أُسقِطتْ مرتبته فلم يطأْ بِساطَ الملك.

وكان شِيرَوَيْهِ بن أبرويز يقول: "إنما تُعْذَرُ البِطانة برفع حوائجها إلىٰ الملوك عند ضِيقَةٍ تكون، أو عند جفوة[2] تنالهم من ملوكهم، أو عند موت يحدث لهم، أو عند تتابع أَزْمَةٍ. فإذا كان ذلك، فعلىٰ الملك تعهُّدُ ذلك من خاصّته حتّٰى يُصلِحَ لهم أمورَهم ويَسُدَّ خَلَّتهم. فإذا كانوا من الكفاية فى أقصىٰ حدودها، ومن خفض العيش فى أرفع خصائصه، ومن ذات اليد وإدرار العطايا فى أتم صفاتها، ثم فتح أحدٌ فاهُ بطلب ما فوق هذه الدرجة، فالذى حداه علىٰ ذلك الشَّرَهُ والمنافسة. ومَن ظهرت هاتان منه كان جديرا أن تُنْزَع كفايته من يده وتُصَيَّر فى يد غيره. ويُنقَل إلىٰ الطبقة الخسيسة، فيُلْزَم أذناب البقر وحراثة الأرض."

✣

ومن أخلاق الملك أنْ لا يَمُنَّ باحسان سَبَقَ منه، ما آستقامتْ له طاعةُ مَن أنعمَ عليه ودامت له ولايته، إلا أنْ يخرُجَ من طاعةٍ إلىٰ معصيةٍ. فإذا فعل ذلك، فمن

من الملوك بنعمهم عند الضرورة فقط

(١) دخل الإمام الشافعىّ على الرشيد وسلّم فردّ الخليفة عليه السلام ثم قال: "من العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى!" (أُنظر شرح القصة فى ص ٤٢ من كتاب "مناقب الشافعى" لفخر الدين الرازى، طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٩). وأول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه عبد الملك بن مروان "البيان والتبيين ج٢ ص١٢" وعلىٰ هذا النظام جرىٰ خلفاء الإسلام، حتى جاء القاضى أحمد بن أبى دُؤاد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، فكان أوّل من بدأهم بالكلام؛ وكانوا لا يُكَلَّمون حتى يتكلموا. (أُنظر آن خلّكان فى ترجمته، وآنظر "شذرات الذهب" ج ١ ص ٥١٦)

(٢) سـ: عقوبة.

أخلاقه أن يَمُنَّ عليه أوّلاً بإحسانه إليه، ويُذَكِّره بلاءَه عنده وقلّة شكره ووفائه، ثم يكون من وراء [ذلك] عقوبته بقدر مايستحقّ ذلك الذنب فى غِلَظه ولِينِه.

"وحدّثنى محمد بن الجَهْم(١) وداود بن أبى داود قالا: جلس الحسن بن سهل فى مُصَلَّى الجماعة لنُعيم بن خازم(٢)، فأقبل نُعيم حافياً حاسرًا وهو يقول: "ذنبى أعظم من السماء! ذنبى أعظم من الهواء! ذنبى أعظم من الماء!" قالا: فقال له الحسن بن سهل: "على رِسْلك! تقدّمتْ منك طاعةٌ، وكان آخرأمرك إلى توبة. وليس للذنب بينهما مكانٌ. وليس ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفوِ أمير المؤمنين فى العفوِ."(٣)"

* * *

عدم المعاقبة فى حال الغضب

ومن أخلاق الملك السعيد أنْ لا يُعاقب وهو غضبانُ. لأنّ هذه حالٌ لا يُسْلَمُ معها من التعدّى والتجاوز لحدّ العقوبة. فإذا سَكَنَ غضبُه ورجع إلى طبعه، أَمَرَ بعقوبته على الحدّ الذى سنّته الشريعة ونقلته الملة(٤). فإنْ لم يكن فى الشريعة ذِكرُ عقوبةِ ذنبِه، فمن العدل أنْ يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطةً بين غليظ الذنوب وليِّنها، وأن يجعل الحكم عليه فيه، ونفسُه طيّبةٌ وذِكرُ القِصاص منه على بالٍ.

فأما العقوبة فلا تجوز إذا رُفِعَ أمرُها إلى الملك(٥).

---

(١) كثيرا مايروى الجاحظ عن هذا الإنسان فى كتاب "الحيوان" وفى كتاب "البيان والتبيين".

(٢) كان فى معية المأمون حينما أرسله إلى مرو أبوه هارون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة. وصار من قوّاده ورجال دولته حينما أفضت إليه الخلافة. (طبرى سلسلة ٣ ص ٧٣٤ و ٨٤١ و ١٠٢٢)

(٣) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * منقولة عن صـ. (وهى واردة فى "البيان والتبيين" ج١ ص٤٥)

(٤) صـ: الأئمة.

(٥) صـ: "فأما العفو فلا يجوز إذا رفع أمره إلى الملك". ولهذه الرواية أيضا وجه وجيه. والضمير راجع إلى الذنب. والمعنى أن الملك لا يجوز له تعطيل الشريعة بالعفو عن الجانى.

وليس الذنب بحضرة الملك كالذنب بحضرة السُّوقة، ولا الذنب بحضرة الحاكم[1] كالذنب بحضرة الجاهل. لأن الملك هو بين الله وبين عباده. فإذا وجب بحضرته الذنب، فمن حقه العقوبة عليه ليزدجر الرعايا عن العياثة والتتايع[2] فى الفساد. (٤١)

✣

آداب البطانة عند قيام الملك

ومن حقّ الملك ـ إذا هم بالحركة للقيام ـ أن تسبقه بطانته وخاصته بذلك. فإن أومأ إليهم أنْ لا يبرحوا، لا يقعُدْ واحدٌ منهم حتّى يتوارىٰ عن أعينهم.

فإذا خرج، فمن حقه أن تقع عينه عليهم وهم قِيَام.

فإذا قعد، كانوا علىٰ حالهم تلكَ.

فإن نظر إليهم ليقعدوا، لم يقعدوا جملةً. بل تقعد الطبقة الأُولىٰ أوّلا. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثانية. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثالثة.

وأيضًا فإن لكل طبقة رأسا وذَنَبًا. فمن الواجب أن يقعد من كلّ طبقةٍ رأسُها ثم هَلُمَّ جَرًّا علىٰ مراتب الطبقة أوّلا أوّلا.

✣

عدم الدنوّ من الملك، إلا بشروط

ومن حقّ الملك أنْ لا يدنُوَ منه أحدٌ ـ صَغُر أو كبر ـ حتّى يَمَسَّ ثوبُه ثوبَه إلّا وهو معروفُ الأبوَيْن، فى مُرَكَّبٍ[3] حسيبٍ، غيرُ خامل الذكر ولا مجهولٍ.

---

(١) هكذا فى سـ، صـ. ولعل الصواب: "الحكيم" أو "الحليم"

(٢) التتايع بالمثناة التحتية: التهافت والإسراع فى الشرّ (قاموس).

(٣) المُرَكَّب كمعظم الأصل والمنبت (قاموس).

فإن احتاج الملك إلىٰ مشافهة خاملٍ أو وضيعٍ واضطُرَّ إليها، إمَّا لنصيحةٍ يُسِرُّها إليه أولأمرٍ يسأله عنه، فمن حقِّ الملك أنْ لا يُخَلِّيَ أحدًا يدنُو منه حتّى يُفَتِّشَ أوّلا، ثم يأخذَ بضبُعَيْه اثنان، أحدُهما عن يمينه والآخر عن شماله. فاذا أبدىٰ ماعنده وقبل منه الملك ماجاء به، فمن حقّه علىٰ الملك الإحسانُ إليه والعائدةُ عليه والنظرُ (٤٢)
٥ فى حاجته - إن كانت له - ليرغب ذوو النصائح فى رفعها إلىٰ ملوكهم والتقرّب بها إليهم.

* * *

الاستماع لحديث الملك

ومن حق الملك، إذا حدّثَ بحديثٍ أنْ يصرِفَ مَن حضره فكره وذهنه نحوه. فإنْ كان يعرفُ الحديثَ الذى يُحدِّثُ به الملكُ، استمعه استماعَ مَن لم يَدْرِ فى حاسَّة ١٠ سمعه قَطُّ ولم يعرفْهُ، وأظهرَ السرورَ بفائدة المَلِك والاستبشارَ بحديثه. فإنّ فى ذلك أمريْن: أحدهما مايظهر من حسن أدبه. والآخر أنه يُعطى الملك حقَّه بحسن الاستماع. وإن كان لم يعرفه، فالنفس إلىٰ فوائد الملوك والحديث عنهم أقرم[٢] وأشهىٰ منها إلىٰ فوائد السُّوقة ومن أشبههم.

*وإنما مدار الأمر والغاية التى إليها يُجرَى، الفهمُ والإفهامُ والطلبُ ثم التثبُّتُ. ١٥ قال عمرو بن العاص: "ثلاثة لا أملُّهُنَّ: جليسى مافهم عنّى، وثوبى ماستر نى، ودابّتى

---

(١) فى سـ: "الاستماع وان كان لم يعرفه فللنفس". وقد أكملتُ موضع البياض وصححت العبارة، بناء على ما فى صـ وعلى ما أورده المسعودى. فانه نقل هذه الحكاية برُمَّتها مع تغيير قليل، وزيادة ونقصان، واضطراب فى التقسيم، وقال إنها مما قاله حكماء اليونان. فلعله نقلها هو والجاحظ عن كتاب آخر. (أُنظر مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٨)

٢٠ (٢) أى أشدّ حرصا. [حاشية فى صـ]. ورواية سـ: "أقرب". [وهى بعيدة عن الصواب].

ماحملتْ رَحْلى.[1]" وذكر الشَّعبيُّ ناساً، فقال: "مارأيتُ مثلَهم أشدَّ تناقدًا فى مجلسٍ ولا أحسنَ فهمًا عن محدِّثٍ."

وقال سعيد بن سَلْم [الباهلىّ] لأمير المؤمنين المأمون: "لو لم أشكرِ الله إلاّ علىٰ حُسن ما أبلانى أميرُ المؤمنين من قصْده إلىّ بالحديث و إشارته إلىّ بطَرْفه، لقد كان ذلك من أعظم ماتفرضه الشريعة وتوجبه الحرّيّة." قال المأمون: "لأن أمير المؤمنين والله يجد عندك من حُسن الإفهام إذا تحدّثتَ، وحسن الفَهم إذا حُدِّثتَ ما لم يجدْهُ عند أحدٍ فيما مضىٰ ولا يظنُّ أنه يجدُه فيما بَقِى.[2]""

(ماحصل لرجل كان أنوشروان يسايره)

وفيما يُحكىٰ عن أنوشروان أنه بَيْنَا هو فى مسيرٍ له (وكان لا يسايره أحدٌ من الخلق مبتدئا وأهلُ المراتب العالية خَلْفَ ظهره علىٰ مراتبهم، فإن آلتفت يمينا، دنا منه صاحب الحَرَس، وإن آلتفت شِمَالا، دنا منه المُوبَذُ، فأمره بإحضار مَن أراد مسايرته)، قال: فآلْتَفَتَ فى مسيره هذا [يمينا]، فدنا منه صاحب الحرس، فقال: فلانٌ. فأحضره. فقال: حدِّثنى عن أردشير بن بابك حين واقع ملك الخَزَر[3]، وكان الرجُل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرّة. فآستعجم عليه وأوْهمه أنه لايعرفه. فحدّثه أنوشروانُ بالحديث. فأصغىٰ الرجُل إليه بجوارحه كلها، وكان مسيرهما علىٰ شاطئ نهرٍ. وترك الرجُلُ ـ لإقباله علىٰ حديثه ـ النظرَ إلىٰ مواطئ حافر دابّته. فزلّتْ إحدىٰ قوائم الدابّة، فمالت بالرجُل إلىٰ النهر فوقع فى الماء ونَفَرَتْ دابّتُه. فآبتدرها حاشيةُ الملك وغلمانُه، فأزالوها عن الرجُل، وجذبوه فحملوه علىٰ أيديهم حتّى أخرجوه. فآغتمّ لذلك أنوشروان ونزل عن دابّته، وبُسِط له هناك. فأقام حتّى

(١) أُنظر رواية أخرى لهذه الكلمة فى "كامل" المبرّد. (ص ١٥٠)

(٢) هاتان الفقرتان المحصورتان بين نجمتين * * منقولتان عن صـ.

(٣) هو بفتح الخاء والزاى إسم جيل (قاموس). والمتعارف الآن عند الفرنج ضم الخاء. وآنظر ياقوت.

تغدّى فى موضعه ذلك. ودعا بثياب من خاصّ كُسوته، فألقيَتْ على الرجُل، وأكل معه. وقال له: كيف أغفلتَ النظر إلى موطئ حافر دابّتك؟ قال: "أيها الملك! إنّ الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ، قابلها بمحنةٍ وعارضها ببليّةٍ. وعلى قدر النعم تكون المِحَنُ. وإنّ الله أنعم علىّ بنعمتين عظيمتين، هما[1]: إقبال الملك علىّ بوجهه من بين هذا السواد الأعظم؛ وهذه[2] الفائدةُ وتدبيرُ هذه الحرب التى حدّث فيها عن أردشير حتّى لو رحلتُ إلى حيث تطلُع الشمس أوتغرب، كنتُ فيه رابحًا. فلما اجتمعتْ نعمتان جليلتان فى وقتٍ [واحدٍ][3]، قابلتهما هذه المحنةُ. ولولا أساورة الملك وخَدَمُه [وحسن جِدّه][3]، كنتُ بمعرض هَلَكَةٍ. وعلى ذلك، فلو غرِقتُ حتّى أذهب عن جَديد الأرض، كان قد أبقى لى الملكُ ذكرا مُتَلَّدا مُخَلَّدا، ما بَقِيَ الضياءُ والظلام.

فسُرَّ الملكُ وقال: ماظننتُك بهذا المقدار الذى أنت فيه!

فحشا فَمَهُ جوْهرا ودُرّا رائعا ثمينا، واستبطنه حتّى غلب على أكثر أمره.[4]

(ماوقع لأبى شجرة الرهاوىّ حينما حادثه معاوية)

وهكذا يُحكَى عن [أبى شجرة] يزيد بن شَجَرَة[5] الرَّهاوىّ، أنه بينا هو يسايرمعاوية

(١) فى سـ، صـ: "منها" تحريفا عن "منهما". وقد صححتُ بمعونة المسعودىّ.

(٢) فى سـ، صـ: "ومنها هذه" تحريفا عن "منهما". وقد صححتُ بمعونة المسعودىّ.

(٣) الزيادة عن المسعودىّ.

(٤) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتمامها وبحرفها، إلا فى كلمات قليلة. وقال إنه وجدها فى كتب سِيَر الملوك من الأعاجم. ونسبها إلى شيرويه بن أبرويز، وقال إن الرجل هو بُندار بن خُرشيد (جزء ٦ ص ١٢٤ — ١٢٦). ونقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ٢٧ — ٢٩). واختصرها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨١ — ٨٢). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" ص ٤٩٤ — ٤٩٥.

(٥) من أركان دولة معاوية. أرسله إلى مكة سنة ٣٩ ليقيم للناس الحج وليأخذ له البيعة ويطرد عامل علىّ عنها. ثم أرسله بعد ذلك لغزو الروم فى البحر مرتين أو مرتين (سنة ٤٩ وسنة ٥٦). وهو منسوب إلى قبيلة من العرب (أُنظر تاج العروس فى مادّة ر هـ و). وأما النسبة إلى المدينة المشهورة بآسيا الصغرى فهى الرُّهاوىّ؛ بضم الراء.

آبن أبى سفيان، ومعاوية يحدّثه عن يوم خزاعة و بنى مخزوم وقريش[1]. وكان هذا قبل الهجرة. وكان يومًا أشرف فيه الفريقان علىٰ الهَلَكَة حتّىٰ جاءهم أبو سفيان فآرتفع ببعيره علىٰ رابية ثم أومأ بكُمّيه[2] إلىٰ الفريقين، فآنصرفوا[3].

قال: فبينا معاوية يحدّث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صكّ وجهَ يزيدَ حَجَرٌ عائرٌ[4] فأدماه، وجعلت الدماءُ تسيل من وجهه علىٰ ثوبه، [وهو] ما يمسح وجهه. ٥

(٤٥)

فقال له معاوية: لله أنت! ما تَرىٰ ما نزل بك؟ قال: وماذاك، ياأمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل علىٰ ثوبك! قال: أُعتِقُ ما أملكُ[5]، إنْ لم يكن حديث

---

(١) فى المسعودىّ: "يحدّثه عن جرعان يوم كان لبنى مخزوم وغيرهم من قريش". وفى بعض نسخه: "جزعان". [والصواب خزاعة كما هو وارد فى سـ، صـ].

(٢) سـ: "بكمه" صـ: "بكفه". [والتصحيح عن "محاسن الملوك"]. ١٠

(٣) هذه القصة لم نجدها لغير الجاحظ والذين نقلوا عنه مثل المسعودىّ وصاحب "تنبيه الملوك" وصاحب "محاسن الملوك". ولعلّ الواقعة التى يشير إليها هى المذكورة فى آخر ديوان حسان بن ثابت الصحابىّ، وفى السيرة الحلبية (ج ١ ص ١٤٣ طبع المرحوم الزبير رحمت باشا العباسىّ فى بولاق سنة ١٢٩٥ هـ، وج ١ ص ٢٧٣ طبع العلّامة وستنفلد فى مدينة ليبسك سنة ١٨٥٨ م)

(٤) فى سـ غاير. وفى صـ عاير. [وهذه الكلمة كثيرا ما يصحفها النساخون والطابعون. فتارة يضعون "غابر" وأخرى "غاير" وأخرى "عابر". والصواب "عائر" بالعين المهملة والياء التحتية المثناة المهموزة. قال صاحب تاج العروس فى مادة (ع و ر): والعائر من السهام مالايدرى رامیه وكذا من الحجارة . . . والجمع العوائر]. ١٥

(٥) فى المسعودىّ: أعتقُ ما أملكُ. ولكن سـ آنفرد بجعل الضمير للغائب على سبيل الحكاية لئلا تقع اليمين على المتكلم أو القارئ. فوردت فيه العبارة هكذا: "عتق ما يملك". وعلى ذلك جرى كثير من الكتّاب. ٢٠ وذلك من باب التشدد فى التأثم والتحرج. وإذا كان ناقل الكفر ليس بكافر، فكيف يقع فى اليمين من يروى مجرد كلام لغيره؟ ولعلهم أرادوا عدم جريان اللسان بمثل هذه الأيمان

أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى وغطى على قلبى، فما شعرتُ بشئ حتى نبهنى أمير المؤمنين. فقال له معاوية: لقد ظلمك مَن جعلك فى ألفٍ من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكُماةِ[1] أهل صِفِّينَ! فأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاده فى عطائه ألف درهم، وجعله بين جلده وثوبه[2].

فلئن كان يزيد بن شجرة خدع معاويةَ فى هذه، فمعاويةُ ممن لايُخادَع ولا يُجارَى[3]. .....ولئن كان بلغ من بلادة يزيد بن شجرة وقلة حِسِّه ماوصف به نفسه، ما كان بجدير بخمسمائة ألف وزيادة ألف فى عطائه. وما أظنّ ذلك خَفِىَ عن معاوية، ولكنه تغافل على معرفةٍ، لَمَّا وَفَّاه حَقَّ رياسته[4].

[ويروى عن معاوية أنه كان يقول: "السَّرْوُ التغافُلُ"[5]]

---

(١) صـ: حماة.

(٢) روى هذه القصة فى "تنبيه الملوك" بألفاظ الجاحظ (ص ٢٩)، ورواها صاحب "محاسن الملوك" باختصار (ص ٢٠). وأوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بالحرف الواحد (ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦).

(٣) صـ: يجارى.

(٤) نقل المسعودى هذه الحكاية أيضا عن الجاحظ، ولم يسمِّه كما جرت عادته. ولكنه حينما اضطُرَّ لنقل فكره وتقديره عند قوله "فلئن كان يزيد بن شجرة ...." ، لم يجد بُدًّا من الإشارة اليه بطريق الوصف والتعميم، فقال: "قال بعض أهل المعرفة والأدب ممن صنف الكتب فى هذا المعنى وغيره" ثم نقل العبارة الثانية برمتها أيضا، مع تغيير قليل فى الالفاظ أو فى مواضعها. (مروج الذهب جزء ٦ ص ١٢٨ ـ ١٣٠)

(٥) هذه الجملة من زيادات صـ. [ومعنى السَّرْو السخاءُ فى مروءة. فيكون المراد من هذه المقولة أن التظاهر بالغفلة هو من دلائل السخاء الممزوج بالمروءة. وسترد هذه المقولة أيضا فى صفحة ١٠٣ من هذا الكتاب].

(ماوقع لابى بكر الهذلى حينا حادثه السفاح)

وكذلك حُكِيَ عن أبي بكر الهُذَلِيِّ[1] أنه بينا هو يسامر أبا العباس إذ تحدّث أبو العباس بحديثٍ من أحاديث الفُرس. فعصفتِ الريح، فأذرتْ طَسًّا[2] من سطح إلى مجلس أبي العباس، فارتاع ومَن حضره. ولم يتحرّك أبو بكر لذلك، ولم تزل عينه متطلعةً لعين أبي العباس. فقال له: ما أعجبَ شأنَك، يا هُذَلِيُّ! لم تُرَعْ مما راعنا! قال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: "مَاجَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ". وإنما للمرء قلبٌ واحدٌ. فلما غمره السرور بفائدة[3] أمير المؤمنين، لم يكن فيه لحادثٍ مَجَالٌ. وإنّ الله، إذا انفرد بكرامة أحدٍ وأحبَّ أن يبقيَ له ذكرَها، جعل تلك الكرامة على لسان نبيِّه أو خليفته. وهذه كرامةٌ خُصِصْتُ بها، مال إليها ذهني[4] وشُغِلَ بها فكري. فلو انقلبت الخضراء على الغبراء، ماحَسَسْتُ بها ولا وَجَمْتُ[5] لها إلّا بما يلزمني في نفسي

(١) اسمه سليمان بن عبد الله (الأعلاق النفيسة لابن رُسته ص ٢١٣). وهو من مشاهير أهل البصرة وكان من أخص جلساء أبي العباس السفاح، وله بحضرته مناظرة بديعة في تفضيل البصرة على الكوفة وأهلها وكان مناظره ابنَ عياش المتوف (الآتي ذكره في متن الكتاب وحاشيته في الصفحة التالية) أوردها ابن الفقيه في كتاب البُلدان (ص ١٦٧ — ١٧٣ وتكلمنا في ص ١٩٠). وهو من الضعفاء في الحديث، ومات سنة ٦٧ (شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٣).

(٢) أي أوقعت الريح طستا. وفي صـ: "فأوردت طستا"، وقد رواها صاحب "مطالع البدور" (ج ١ ص ١٩٢). والذي في المسعودي: "فأذرتْ ترابا وقطعا من الآجُرّ من أعلى السطح إلى المجلس". وانظر "شذرات الذهب" (ج ١ ص ٢١٧). وقد روى الراغب الاصفهاني في "محاضراته" (ج ١ ص ١١٧) واقعة أخرى شبيهة بهذه من كل الوجوه، فقال: كان أبو القاسم الكعبي المتكلم في مجلس أمير خراسان فسقط من السطح طستٌ فتزلزلت منه عَرْصة الدار. فلم يلتفت أبو القاسم عن الأمير. فقال الأمير لا يصلح لوزارتي إلا هو.

(٣) في المسعودي: "بحادثة".

(٤) صـ: البيضاء.

(٥) صـ: توجهت.

لامير المؤمنين. فقال أبو العباس: لئن بقيتُ لك، لارفعنّ منك ضَبُعاً[1] لا تطيف به السباع ولا تحطُّ عليه العِقبان[2].

(كلمة ابن عياش المتوف)

وكان [عبد الله] بن عَيّاش[3] المنتوف يقول: لم يتقرّب العامّة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البِطانة بمثل حُسن الاستماع[4].

(١) الضَّبُع (بضم الباء) العضد. والجملة هنا كناية، بمعنى لانوّهنّ باسمك. (انظر القاموس وأساس البلاغة). وفي المسعوديّ: "صعبا". [وهو تحريف ظاهر].

(٢) أورد المسعوديّ هذه القصة بتبديل في الألفاظ وزيادة ونقصان (مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ — ١٢٣). وأوردها صاحب "محاسن الملوك" باختصار (ص ٢٠). ونقلها بتحريف يسير صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦).

(٣) هو من رجالات المنصور العبّاسيّ، وكان من النسّابين. ويعرف بالمنتوف لأنه كان ينتف لحيته؟ (ابن قتيبة في كتاب "المعارف" ص ٦٨). ذكره ابن الأثير في حوادث سنتي ١٤٧ و ١٥٨.

ركب المنصور معه يوما، فقال له: تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين، قتلت ثلاثةَ خوارجَ مبدأُ أسمائهم على العين؟ قال: لا أعرف إلا ما يقول العامّة إن علياً قتل عثمان (وكذبوا)، وعبد الملك قتل عبد الرحمن بن الأشعث، وعبد الله بن علّ سقط عليه البيت. [وكان المنصور، واسمه عبد الله بن محمد، سجن عبد الله بن علّ هذا في بيت أساسه ملح، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات.] فقال المنصور: إذا سقط عليه، فأذنني، أنا؟ قال: ما قلتُ إنّ لك ذنبا. وقد روى المسعوديّ هذه المحادثة بتفصيل أوفى (ج ٦ ص ٢١٧ — ٢١٨)، وساقها الراغب الإصفهاني في محاضراته بألطف سياق (ج ٢ ص ٢٠٥).

وفي صبح الأعشى (ج ١ ص ٢٦٥): ملكان إسلاميّان أوّل اسم كلّ واحدٍ منهما عينٌ، قتل كلّ واحدٍ منهما ثلاثة ملوك أوّل اسم كل واحدٍ منهم عينٌ. أحدهما عبد الملك بن مروان، قتل عمرو بن سعيد، وعبد الله ابن الزُّبَيْر، وعبد الرحمن بن محمد الأشعث. والثاني أبو جعفر المنصور (واسمه عبد الله) قتل أبا مسلم الخراسانيّ (واسمه عبد الرحمن)، وعمّه عبد الرحمن بن علّ، وعبد الجبار بن عبد الرحمن والي خُراسان. [وانظر ص ١١٤ من هذا الكتاب].

(٤) نقلها المسعوديّ (ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤).

(كلمة روح بن زنباع)

وكان [أبو زُرْعة] رَوْح[1] بن زِنْبَاع[بن رَوح بن سلامة الجُذَامى]يقول: إن أردتَ أن يُمَكِّنَك المَلك من أُذُنه، فأَمْكِنْ أُذُنَك من الإصغاء إليه إذا حدّث.[2]

(٤٧)

(كلمة أسماء بن خارجة الفزارى)

وكان أسماء بن خارجة[3] [الفَزَارىُّ] يقول: ما غلبنى أحدٌ قطُّ غلبةَ رجُلٍ يصغى إلىٰ حديثى.[2]

(كلمة معاوية)

وكان معاوية يقول: يُغْلَبُ المَلكُ حتّى يُرْكَب بشيئين: بالحلم عند سَوْرته، والإصغاء إلىٰ حديثه.[2]

---

(١) قال فى "تاج العروس" إن كل من سمى "رَوْح" من المحدثين فهو بالفتح، إلا رُوح بن القاسم، فانه بالضم. ورَوْح بن زنباع الجُذَامىّ من رجالات بنى أُمية. كان فى سنة ٦٤ واليا على فلسطين للخليفة مرْوان بن الحَكَم، فوثب عليه بابل بن قيس الجُذَامى فأخرجه، وبايع لابن الزبير حين قيامه بالخلافة فى الحجاز. ثم عاد رَوْح واليا عليها، بعد أن أَلْقىٰ خطابة جذب بها الناس لبيعة مرْوان بن الحَكَم دون عبدالله بن عمر بن الخطاب ودون عبدالله بن الزبير. (أُنظرها فى ابن الاثير فى حوادث سنة ٦٤). ولذلك صار من أجلّ الناس عنده وعند ابنه عبد الملك بن مرْوان. وكان جليسه وأنيسه ونديمه وسميره ومشيره حتى قال الخليفة فيه إنه جمع ثلاث خصال لم تجتمع فى غيره: فقه الحجاز، فى دهاء أهل العراق، فى طاعة أهل الشأم. (العقد الفريد ج ١ ص ٩ و ٢٠٧ وأسد الغابة). وقد وقعت له مع هذا الخليفة ومع زوجته الأعرابية حكاية ظريفة أوردها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١٩). [وانظر صفحة ١١٣ و ١١٧ و ١٣٠ من هذا الكتاب].

ثم صار مشيراً للوليد بن عبد الملك. ومع ما كان عليه من الفضل والدهاء والذكاء، فقد وقعت له حكاية ظريفة مضحكة أثناء وجوده بالكوفة مع بِشْر أخى عبدالملك بن مرْوان واليها. أوردها فى "مروج الذهب" (ج ٥ ص ٢٥٤ — ٢٥٨ — وفى المستطرف ج ٢ ص ١١٢)

(٢) نقلها المسعودىّ (ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤).

(٣) أسماء بن خارجة هو ابن حصن بن حُذيفة بن بدر. كان سيد بنى فزارة، وكان من أسخياء الكوفة. مات سنة ٩٦. وله ترجمة فى "فوات الوفيات" (ج ١ ص ١٤). ولم يل أسماء بن خارجة شيأ للسلطان (العقد الفريد ج ١ ص ٥١)

آداب أهل الزلفى بعد المضاحكة

ومن أخلاق الملك، إذا قرب إنسانا أو أَنِسَ به حتّى يهازله ويضاحكه ثم دخل عليه بعدُ، أنْ يدخل دخولَ مَن لم يجرِ بينهما أُنْسٌ قطُّ وأن يُظهر من الإجلال له والتعظيم والاستخذاء[1] أكثر مما كان عليه قبلُ. فإنّ أخلاق الملوك ليست على نظامٍ.

تنكر أخلاق الملوك

ومن أخلاقهم أن لا تكون أخلاقهم معروفة فيُتَمَثَّلُ عليها ويُعامَلون بها.

ألا ترى أنّ الملك قد يغضب على الرجُل من حُمَاتِه، والرجُل من حاقّته وبِطانته: إما لجنايةٍ فى صُلب مالٍ، أو لخيانةِ حُرمةِ المَلِك، فيؤخّر عقوبته دهرا طويلا، ثم لا يُظهِر له ما يُوحِشُه حتى يَتَّقِيَ ذلك فى اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك.

وليست هذه أخلاق سائر الناس، إذ كنا نعلم أن طبائعَ الناس الانتصارُ فى أوّل أوقات الجنايات وعند أوّل بوادر الغضب.

٤٨

صبر الملوك على مضض الحقد حتى تحين الفرصة

فأما الملوك وأبناؤهم، فليست تُقاس أخلاقهم ولا يُعايَرُ[2] عليها. إذ كان أحدهم يضع أعدى خَلق الله له بين أُذُنه وعاتقه، وبين سَحْرِه ونَحْرِه[3]. فتطول بذلك المدّة وتمرّ به الأزمنة. وهو لو قتله[4] فى أوّل حادثة تكون وعند أوّل عثرة يَعْثُرُ لم يكن

---

(١) الخضوع والانقياد. وفى "الأغانى": أنت تخضع لهذا، هذا الخضوع وتستخذى له؟ (ج٧ ص١٨٣)

(٢) صـ: تعامل.

(٣) السَّحْر (بالفتح) هو الرئة. والمراد به هنا ما يحاذيه، وهو الصدر. قالت عائشة (رضى الله عنها): "مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين سحرى ونحرى." تعنى بين صدرها ونحرها. والمقصود شدة الاقتراب والالتزاق، كما نقول أيضا: بين سمعه وبصره. (عن تاج العروس)

(٤) صـ: وهو له. سـ: ويقولون.

بين هذه القتلة وبين الأُخرىٰ بعدها بعشرين سنة فرقٌ. إذ كان لا يخاف ثَأْرا، ولا فى المُلك وَهْنًا.

(معاقبة أنوشروان لمن خانه فى حريمه)

وفيما يُذكَر عن سيرة أنوشِرْوان أنّ رجُلا من خاصّ خَدَمه جنىٰ جناية آطَّلع عليها أنوشروان، والرجُل غافلٌ عنه. وكانت عقوبة تلك الجناية توجب القتل فى الشريعة. فلم يدرِ كيف يقتله: لا هو وَجَدَ أمرًا ظاهرًا يَقْتُلُ بمثله الحُكّامُ فيسفك به دَمَه، ولا قدر علىٰ كشْف ذَنْبه لما فى ذلك من الوَهْن علىٰ المَلِك والمملكة، ولا وجد لنفسه عذرا فى قتله غِيلةً، إذ لم يكن ذلك فى شرائع دينهم ووِراثة سَلَفهم. فدعا به بعد جنايته بسنَةٍ فآستخلاه وقال: قد حزبنى[1] أمرٌ من أسرار مَلِك الروم، وبى حاجة إلىٰ أن أعلمها، وما أجدُنى أسكُنُ إلىٰ أحد سُكونى إليك، إذ حللتَ من قلبى المحلَّ الذى أنت به. وقد رأيتُ أن أدفع إليك مالًا لتحمِل إلىٰ هناك تجارةً وتدخلَ بلاد أَلْرُوم فتقيم بها لتجارتك. فإذا بِعْتَ ما معك، حملتَ مما فى بلادهم من تجاراتهم وأقبلتَ إلىّ. وفى خِلال ذلك تُصْغِى إلىٰ أخبارهم وتطَّلِع طِلْعَ[2] مابنا حاجةٌ إليه من أُمورهم وأسرارهم.

فقال الرجُل: أفْعَلُ أيها الملك، وأرجو أن أبلُغَ فى ذلك محبة المَلِك ورضاه.

فأمر له بمالٍ، وتجهز الرجُل وخرج بتجارة. فأقام ببلاد الروم حتّى باع وآشترىٰ ولَقِنَ[3] من كلامهم ولغتهم ماعرف به مخاطبتهم وبعض أسرار مَلِكهم[4]. ثم آنصرف إلىٰ

(١) حَزَبَه الأمر آشتدَّ عليه وأصابه منه غمٌّ.

(٢) أى: وتعلم سرَّ أمرهم الذى نحن فى حاجة إلى معرفته.

(٣) أى فَهِمَ وحَفِظَ بسرعة.

(٤) صـ: أسرارهم.

أنوشروان بذلك. فاستبشر بقدومه وزاد فى برّه، وردّه إلىٰ بلادهم وأمره بطول المُقام بها والتربُّص بتجارته. ففعل حتّى عُرف واستفاض ذِكره. فلم تزل تلك حاله ستَّ سنين. حتّى إذا كان فى السنة السابعة، أمر الملك أن تُصوَّر صورةُ الرجُل فى جامٍ من جاماته التى يَشْرَبُ فيها، وتُجعلَ صورتُهُ بإزاء صورة المَلك، ويُجْعَلَ مخاطباً (٥٠) للمَلك ومشيرًا إليه من بين أهل مملكته، ويُدنى رأسَه من رأس المَلك فى الصورة كأنه يُسِرُّ إليه[1]. ثم وَهَبَ ذلك الجام لبعض خدمه، وقال له: "إن الملوك ترغب فى هذا الجام. فإنْ أردتَ بيعه، فادفعه إلىٰ فلان إذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته. فإنه إنْ باعه من المَلك نفسه، نفعك؛ وإنْ لم يُمْكِنْه بيعه من الملك باعه من وزيره أو من بعض حاشيته." فجاء غلام الملك بالجام ليلاً، وقد وضع الرجُل رِجْله فى غَرْزِ[2] ركابه، فسأله أن يبيع جامه من الملك، وأن يَتَّخِذَ بذلك عنده يدًا. وكان الملك يقدّم ذلك الغلام، وكان من خاصّ غلمانه وصاحبَ شرابه. فأجابه إلىٰ ذلك، وأمره بدفع الجام إلىٰ صاحب خِزانته، وقال: "احفظْه! فإذا صرتُ إلىٰ باب الملك، فلْيكن فيما أعرضه عليه." فلما صار إلىٰ ملك الروم، دفع صاحب الخِزانة إليه الجامَ فعزله فيما يَعرض علىٰ الملك. فلما وقع الجام فى يَدَىِ الملك، نظر إليه ونظر إلىٰ صورة أنوشروان فيه وإلىٰ صورة الرجل وتركيبه: عُضوًا عُضوًا وجارحةً جارحةً. فقال: "أخبِرْنى، هل يُصوَّر (٥١) مع الملك صورةُ رجُلٍ خسيسِ الأصل؟ قال: لا. قال: فهل يُصوَّر فى آنية الملك صورةٌ لا أصلَ لها ولا علّة؟ قال: لا. قال: فهل فى دار الملك اثنان يتشابهان

(١) صه: يسارّه.

(٢) الغرز هو الركاب من جلد مخروز.

فى صورةٍ واحدةٍ حتّى يكون هذا كأنّه هذا فى الصورة، وكلاهما نديمَا المَلك؟ قال: لا أعرفه. فقال: قم! فقام. فتأمّله قائما، فوجد صورته قائمًا فى الحمام. ثم قال: أَدْبِرْ! فأَدْبَرَ، فتأمّل صورته فى الحمام مُدْبِرًا. ثم قال: أَقْبِلْ! فأَقْبَلَ. فتأمّل صورته فى الحمام مقبلًا. فوجدها بحكاية واحدة وتخطيط واحد. فضحك الملك ولم يجترئ الرجُل أنْ يسأله عن سبب ضحكه، إجلالًا له وإعظامًا. فقال ملك الروم: الشاةُ أعقل من الإنسان إذ كانت تأخذ[1] بِمُدْيتها فتدفنها[2]، وأنت أهديْتَ إلينا مُديتك بيدك! ثم قال له: تغدّيتَ؟ قال: لا. قال: قرّبوا له طعاما. فقال الرجُل: أيها الملك! أنا عبد ذليل، والعبد لا يأكل بحضرة الملك. فقال: أنت عبدٌ ما كنتَ عند ملك الروم متطلّعا على أُموره متتبعا لأسراره؛ بل أنت مَلِكٌ ونديمُ ملكٍ إذا قدِمتَ بلاد فارس. أطعِموه! فأُطْعِمَ وسُقِيَ الخمرَ حتّى إذا ثَمِل، قال: إنّ من سُنن ملوكنا أنْ تقتل الجواسيس فى أعلى موضع تقدر عليه، وأنْ لا تقتله جائعًا ولا عطشانَ. فأمر أنْ يُصعد به إلى صَرْح كان يُشْرِف منه على كلّ مَن فى المدينة، إذا صَعِد. فضُربتْ عنقُه هناك، وأُلْقِيَتْ جُثّتُه من ذلك الصَّرح، ونُصِبَ رأسه للناس.

فلما بلغ ذلك كسرى، أمر صاحب الحرس أن يأمر المغتّد[3] بصوت الحراسة — إذا ضَرَبَ بأجراس الذهب — أنْ يقول، إذا مرّ على دور نساء المَلك وجواريه:

(١) س: تحمى.

(٢) روى المقريزىّ عن ابن عبد الظاهر "أن خادما رأى من مَشْرف عال ذبّاحا، وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينه ومضى ليقضى حاجته. فأتى رأسُ الغنم الآخرُ وأخذ السِّكّينَ بفمه ورماها فى البالوعة. فجاء الجزّار يطوف على السِّكّين، فلم يجدها. وأما الخادم، فانه استصرخ وخلّصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعا" (الخطط ج ٢ ص ٢٩٣). وهذا الجامع هو المعروف اليوم بجامع الفاكهانى.

(٣) ص: يأمر بالعود يضرب.

"كُلُّ نفسٍ وجب عليها القتلُ ففى الأرض تُقتل، إلّا من تعرّض لحُرَمِ المَلك فإنه يُقتل فى السماء."

فلم يدرِ أحدٌ من أهل مملكته ماذا أراد بذلك حتّى مات.[1]

فليس فى الأرض نفسٌ تصبر علىٰ مَضَض الحِقد ومطاولة الأيام[2] بها صبرَ الملوك.

ولذلك بطل القياس علىٰ أخلاقهم، ووُجِّهَتْ آراء ذوى الحِجَا والتمييز فى العمل عليها والمقابلة بها حتّى تخرج علىٰ وزنٍ واحدٍ وبنظمٍ مؤتلف.

(٥٣) (نكبة عبد الملك بن مروان بمن نازعه الملك)

وكذلك يُحكىٰ عن عبد الملك بن مَرْوَان وعمرو بن سعيد الأشدق[3]، أنه أقام

(١) روى صاحب "تنبيه الملوك" هذه القصة عن الجاحظ (ص ٣٠ ــ ٣٤)، وهى واردة بالحرف فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٧ ــ ٢٨٠)

(٢) الضمير يعود إلى النفس.

(٣) فى "الاشتقاق" لابن دُرَيد (ص ٤٩) مانصه: عمرو بن سعيد بن العاص يعرف بالأشدق، وهو الذى يلقب بطيم الشيطان. لما بلغ خبره إلى ابن الزبير (وهو مطالب بالخلافة فى مكة) صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أبا ذبّان قتل لطيم الشيطان "وكذلك نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ". قتله عبد الملك بن مروان فى خطب طويل ذكره المؤرخون بالتفصيل، مثل المسعودى (ج ٥ ص ١٩٨ و ٣٣٤ــ٣٣٩)، وابن الأثير (فى حوادث سنة ٦٩). لكن حكاية ابن الأثير لاتدل على تردد عبد الملك فى شأنه بضع سنين كما يصرّح به الجاحظ، وهو الحق. كان الرجل ذا شجاعة وفصاحة وبلاغة وإقدام، وكبرياء وعظمة لا نهاية لها. سعى فى حمل الناس على مبايعة مروان، بعد أن اتفق معه على أن يجعله ولىّ عهده بعد خالد بن يزيد. فلما تم الأمر لمروان، نقض الشرط وجعل الخلافة لابنه عبد الملك، علىٰ أن يكون خالد وعمرو وليَّىْ عهده بعده. ولكن عبد الملك تخلص من خالد بأيسر سبب، وحَزَبَهُ أمر عمرو وهو بصابره. وكان بينه وبين عبد الملك مكاتبات ومحادثات بشأن الخلافة. كتب إليه عبد الملك: "إنك لتُطمع نفسك بالخلافة، ولستَ لها بأهلٍ"! فأجابه عمرو: "إستدراج النعم إياك أفادك البغىَ، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة. زجوتَ عما وافقت عليه، وندبتَ الى ماتركتَ سبيله. ولو كان ضعف الإنسان يؤيس الطالب، ما انتقل سلطان ولاذلَّ عزيز. وعن قريب يتبيَّنُ مَن صريعُ بغىٍ وأسيرُ غفلة". قال فى المستطرف =

بضع سنين يُزاول[1] قتله. فمرّة يُرجئُه، وأُخرىٰ يَهُمّ به، ومرّة يُحجِم، وأُخرىٰ يُقدِم، حتّى قَتَلَه، علىٰ أخبث حالاته.

(نكبة الرشيد بالبرامكة)

وحدّثني قُثَم بن جعفر بن سليمان[2]، قال: حدّثني مسرور[3] الخادم: قال: أشهدُ بالله! لَكُنْتُ[4] من الرشيد وهو متعلّقٌ بأستار الكعبة بحيث يَمَسُّ ثوبي ثوبَه، وهو يقول في مناجاته ربَّه: "آللهم! إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى." ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ستّ[5].

+ + +

مراعاة حرم الملك

ومن حقّ الملك أن لا يَرفعَ أحدٌ من خاصّته وبطانته رأسَه إلىٰ حُرْمَةٍ له، صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ. فكم من فيلٍ قد وطئ هامةَ عظيم وبطنَه حتى بدت أمعاؤه؛ وكم من

= (ج ٢ ص ٤٤) إنه سُمّيَ بالأشدق لأنه كان مائل الشدق. وانظر التفاصيل في المواطن التي نبهنا عليها. [وانظر الأقوال الأخرى التي رواها الجاحظ في سبب تسميته بالأشدق وأنه كان خطيبا مفوّها "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٢١ – ١٢٢ وانظر أيضا ص ١٨٤ – ١٨٥ منه].

(١) سـ: يراود.

(٢) هو قُثَم بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس. كان عاملاً على المدينة، وأميراً على البصرة. وله فيها مجالسُ علم وأدب. (انظر البلاذري والأغاني في فهارسهما)

(٣) في الأصل: "حسين". ولا نعلم أن للرشيد خادما بهذا الاسم. ولذلك أبدلناه بخادمه المشهور وهو: "مسرور". ويؤيد ذلك أيضا رواية "تنبيه الملوك والمكايد" الواردة في الحاشية رقم ٥ من هذه الصفحة.

(٤) سـ: مع.

(٥) في "تنبيه الملوك والمكايد" ما نصه: "كان الرشيد أدهىٰ الناس وأكتمَهم لسرّه. ومما يدلُّ علىٰ ذلك ما حدّث به مسرورٌ خادمُه، قال: كنتُ مع الرشيد في بعض سِني حجّه، فسمعتُه وقد التزم المُستجار من الكعبة وهو يلتفت يمينًا وشمالًا، وكنتُ بين أستار الكعبة لم يرني وهو يقول: "اللّهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى!" مرارًا كثيرة. فلما سمعتُه، طار عقلي وخشيتُ أن يفطن بي، فيكون ذلك سبب هلاكي. فأقبلتُ أتعوّذُ، ولم أزَلْ أحتالُ حتى استللتُ من الأستار. قال أبو هاشم مسرورٌ الخادمُ: فكان بين الوقت الذي استخار الله فيه في قتل جعفر بن يحيى وبين قتله سبعُ سنين". (صفحة ١٩٧ – ١٩٨)

شريف وعزيز قوم قد مزّقته السباع وتمشّشته[1]؛ وكم من جارية كانت كريمةً على قومها عزيزةً فى ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء، وكم من جُمْجُمَة كانت تُصان وتُعلّ بالمِسك[2] والبان[3] قد أُلقيت[4] بالعَرَاء، وغُيّبَتْ جُثَثُها فى الثرى بسبب الحَرَم والنساء، والخَدَم، والأولياء! ولم يأتِ الشيطان أحدًا من بابٍ قَطُّ حتّى يراه بحيث يَهْوِى[5] منقسم اللحم والأعضاء، هو أبلغ فى مكيدته وأحرى أن يَرَى فيه أُمْنِيَّتَه من هذا الباب، إذ كان من ألطف مكايده وأدقّ وساوسه وأحلى[6] تزيينه!

(١) أى مَضَّتْ عظمه. وفى سـ: "تمزقه السباع وتمشمشته". وفى صـ: "تمزقه السباع وتمشّشه". وفى "المحاسن والأضداد": ونهشته.

(٢) أى تُطيّب مرة بعد أخرى بالمسك الخ، عَلّه بالحناء يَعِله ويُعله "الكامل للمبرّد". والعليلة المرأة المضيبة طيبا بعد طيب "قاموس". وفى صـ: تعل. وفى نسخ "المحاسن والأضداد": تغل، تعل، تغدا. [وانظر صفحة ١٥٥ من هذا الكتاب والحاشية ١ و ٢ منها]

(٣) يطلق العرب اسم البان على شجرتين مختلفتين. فالأولى هى المسماة أيضا بشجرة الخلاف، وهى التى يهيم بها الشعراء ويشبّبون بقوام المحبوب بقضبانها. وهى كثيرة بمصر. والخلاف نوع من الصفصاف (Saule) أو هو غيره. ويطلقون اسم الخلاف فى مصر على زهرة مما يُشَمّ رَطبا ويُستقطر مثل الورد والنسرين والنيلوفر (نهاية الأرب، فى الباب الأول من القسم الأول من الفنّ الرابع؛ وحسن المحاضرة). وفى "صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٣" أن البان والخلاف من الفواكه المشمومة وأنهما نوعان.

أما اسم هذا البان عند علماء النبات فهو Salix Egyptiaca. والشجرة الثانية هى التى عناها الجاحظ. تشبه الأثل ولها ثمر كأنه الجوز فيه حبٌّ كالفستق، ومنه يستخرجون الدهن المشهور بدهن البان أو بالبان فقط. وهذا الثمر يسمى بالشُّوع أيضا. ودهنه يدخل فى تركيب غالب الطيب والأعطار والغوالى. وتوجد شجرته ببلاد العرب. واسمه العلمى (Guilandina moringa) واسمه العامّى المشهور عند الفرنج (Ben) مأخوذ عن العربية. (راجع ابن البيطار وترجمه إلى الفرنسية فى الكلمات التى ذكرناها)

(٤) صـ: نبذت.

(٥) من باب ضرب بمعنى يسقط.

(٦) فى نسخ "المحاسن والأضداد" (ص٢٧٣ ــ ٢٧٤) أجلّ تزاينه، أجلّ بواقه.

فعلىٰ الحكيم المحبِّ لبقاء هذا النسيم الدقيق، وهذا الماء الرقيق[1]، أنْ يطلبَ دواءَهما لنفسه بكل حيلة يجد إليها سبيلا؛ ويدفع مقارفتهما[2] لكل شئ يقع فيه التأويلُ بين أمرين من سلامة تُنجي أو عَطَبٍ[3] يُتْلف؛ ولا يَتَّكِلَ علىٰ خيانة خَفِيَتْ أو فَجْرَةٍ حَظِيَ بها أحدٌ من أهل السَّفَه والبَطالة. فإنَّ تلك لا تُسَمَّىٰ سلامة، بل إنما هي[4] حسرة وندامة، يومَ القيامة. وكم من فَعْلة قد ظُهِرَ عليها بعد مرور الأيام وطول الأزمنة بها، فَرَدَّتْ[5] من كان قد أحسنَ بها الظنَّ حتّىٰ تركتْه كأمس الذاهب[6]، كأنْ لم يكن فى العالَم!

✣

إغضاء البصر بحضرة الملك

ومن حقِّ الملك ـ إذا أَنِسَ بإنسانٍ حتّىٰ يُضاحكه ويُهازله ويُفْضِيَ إليه بسرّه ويَخُصَّه دون أهله، ثم دخل علىٰ الملك داخلٌ أو زاره زائرٌ ـ أنْ لا يرفعَ إليه طَرْفه، إعظاما وإكراما، وتبجيلا وتوقيرا؛ ولا يضحكَ لضَحِك المَلِك ولا يعجَب لعَجَبه. وليكنْ غرضُه الإطراقَ والصمتَ وقلّةَ الحركة.

(١) يُكنّى بالنسيم الدقيق عن النَّفَس؛ وبالماء الرقيق عن الدم.

(٢) سـ: مفارقتهما بكل. صـ: مفارقتها بكل. [وربما كان الأصوب ماوضعناه فى متن الكتاب: "ويدفع مقارقتهما لكل شئ الخ" أى يحول دون ارتكابهما لأىّ أمر تكون عاقبته شكوكا فيها بين السلامة والهلاك]. قال فى تاج العروس: "قارفه مقارفة وقرافا: قاربه. ولا تكون المقارفة إلّا فى الأشياء الدنيئة."

(٣) صـ: غضب.

(٤) سـ: تسمى.

(٥) الفعل هنا هو ردَّى مثل أردىٰ، بمعنى أهلك. وفى صـ: فأوردت.

(٦) أمس الذاهب، وأمس الدابر، وخير كان: كلُّها بمعنى واحد. (أُنظر لسان العرب فى د ب ر)

غض الصوت بحضرة الملك

ومن حق المَلك أنْ لا يرفع أحدٌ صوتَه بحضرته. لأن من تعظيم المَلك وتبجيله خَفْضَ الأصوات بحضرته، إذ كان ذلك أكثرَ في بهائه وعزِّه وسلطانه.

تأديب الله للصحابة

وبهذا أدّب الله أصحاب رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فقال عزَّ من قائل: ٥ "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ." فأخبرَ أنَّ مَن رفع صوته فوق صوت النبيّ فقد آذاه، ومَن آذاه فقد آذىٰ الله، ومَن آذىٰ الله فقد حَبِط عمله.

وكان قومٌ من سفهاء بني تميم أَتَوُا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: يامحمد! أُخْرُجْ إلينا نُكَلِّمْكَ. فَغَمَّ ذلك رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) وساءه ما ظهر من سُوء ١٠ أدبهم، فأنزل الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ."(١)

ثم أثنىٰ علىٰ مَن غضَّ صوته بحضرة رسوله، فقال جل اسمه: "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ."(٢)

(٥٦) فمن تعظيم المَلك وتبجيله خفضُ الأصوات بحضرته، وإذا قام عن مجلسه: ١٥ حتىٰ لايدخُل المُلكَ وَهْنٌ ولا خَلَلٌ ولا تقصيرٌ في صغيرِ أمرٍ ولا جليله.

حرمة مجلس الملك في غيبته

وكانت ملوك الأعاجم تقول: إنَّ حُرْمَةَ مجلس الملك إذا غاب كحُرْمته إذا حضر.

(١) أُنظر قصة هذا الوفد في كتب السيرة النبوية، وفي "صبح الأعشىٰ" (ج ١ ص ٢٢٤ – ٢٢٦). وفي "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣٩).

٢٠ (٢) أُنظر "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١١٧).

الرقباء على مجالس ملوك العجم عند غيابهم

وكان لها عيون[1] على مجالسها، إذا غابت عنها. فمَن حضرها، فكان فى كلامه وإشارته وقلّة حركته وحُسن ألفاظه وأدبه - حتّى أنفاسه - على مثل ما يكون إذا حضر الملك، سُمّىَ ذا وجهٍ. ومَن خالف أخلاقه وشِيَمَه وظهر منه خلاف ما يظهره بحضرة المَلك، سُمّىَ ذا وجهين، وكان عند الملك منقوصا مُتَصَنِّعًا[2].

✣

مواطن المكافآت

ومن أخلاق الملك أن يخلع على مَن أدخل عليه سرورًا، إمّا فى خاصّة نفسه وإمّا فى توكيد مُلكه. فإنْ كان السرور لنفسه فى نفسه، فمن حقّه على الملك أن يخلع عليه خِلعة فى قرار داره، وبحضرة بِطانته وخاصّته. وإن كان فى توكيد مُلكه، فمن حقّه أن يخلع عليه بحضرة العامّة، لينشُر له بذلك الذكر ويُحْسِنَ به الأُحدوثةَ وتَصْلُحَ عليه النيّات، ويَستدعى بذلك الرغبة إلى توكيد المُلك وتسديد أركانه. ٥٧

بيان المكافآت وخصوصها وعمومها

وليس من العدل أن يُفْرَدَ المُحْسِنُ بخِلعة فقط، إلّا أن تكون الخلعة على شُرب أو لَهْوٍ. فأما إذا كانت لأَحَدِ المَعْنَيَيْن اللذيْن قدّمنا ذكرهما، فمن العدل أن يكون معها جائزةٌ وصِلَةٌ وترتيبٌ، أو ولاية أو إقطاع أو إجراء أرزاق أو فكّ أسير أو حمل حَمالات أو قضاء دَيْن أو إحسان، كائنًا ما كان، مضافًا إليها وموصولًا بها.

---

(١) أى رقباء.

(٢) صـ: مقصيا. [وعلى فرض صحة هذا الحرف فالواجب أن تكون صيغته هنا "مُقْصًى" إذ لا يقال "مقصيا" فى اسم المفعول. وانظر القاموس وشرحه فى مادة ق ص و]